الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٢٦ — ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

Lundi-2-12-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

3 me Année, No. 126.

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

فى الجمـــــال . . .

— ٣ —

إذا عرفت الجوهر الذى يتحقق به الجمال الطبيعى (١) سهل عليك أن تعرف الجوهر الذى يقوم عليه الجمال الصناعى ، لأنه إما وحيه و إما نموذجه . فالجمال الصناعى يتعلق بالفكرة التى يوحيها إليك الفن عن الفنان ثم عن الفن نفسه إذا كان ابتكارياً ، وبالفكرة التى يوحيها إليك الفن عن الفن نفسه وعن الفنان ثم عن الطبيعة إذا كان تقليديا . ولننظر بادئ الأمر فيم تنشأ منه عاطفة الجمال فى الفن الابتكارى كالريازة (٢) مثلا . ففى أى بَنِيَّة من البنايا تجد الوحدة ، والتنوع ، والترتيب ، والتناظر (٣) ، والتناسب ، والتوافق ، تؤلف منها كُلاًّ منتظما مافى ذلك شك ؛ ولكنك لا تجد فى ذلك الشكل جمالا إذا لم يكن من العظمة أو الوفرة أو الذكاء على درجة تثير فى نفسك الاعجاب والدهش . وهل تجد فى العمارة البسيطة مهما اتسق بناؤها واتفقت أجزاؤها ما تجد فى معابد الفراعين من الجمال والجلال والروعة ؟ خذ بنظرك قصراً من قصور القاهرة الحديثة شِيد على قَدَر عادى من العناصر الجمالية

(١) انظر العددين ١٢٢ و ١٢٣ (٢) فن العمارة (٣) السيمترية

الثلاثة ، ثم أطل الوقوف أمامه ما شئت ، تجد الفن فيه نازلا على حكم القواعد الموضوعة . ولكنه عيي صامت لا يحدثك لا عن نفسه ولا عن صانعه ؛ ثم قف تلك الوقفة أمام معبد الكرنك أو هيكل الأقصر أو هرم الجيزة ، تجد نفسك المسبوهة المشدوهة موزعة بين سمو الفن في ذاته ، وعظمة الفنان في حقيقته . لاجرم أن هذه الأبنية الضخمة الفخمة أقل تناسقاً وتوافقاً من تلك ، ولكن القوة التي أقامت هذه الأعمدة ، ورفعت تلك الصخور ، ونصبت هذه التماثيل ، وصنعت تلك المحاريب ؛ والوفرة التي تراها في الشكول المختلفة ، والصور الناطقة ، والرسوم الدقيقة ، والكتابة الرمزية ، والأصباغ الحية ، والمادة العجيبة ؛ والذكاء الذي يروعك في ابتكار الوسائل الميكانيكية لنقل هذه الأجرام الهائلة من مناحتها في الجبل ، إلى مثابتها في الجو ، لتصارع الفناء الذي لا يفتر ، وتصارع الدهر الذي لا يبيد ؛ هي التي حققت فيها ذلك الجمال ، وألقت عليها هذه الروعة ، وربطت في ذهنك بين فكرتك عن الصنيع وفكرتك عن الصانع . ولو كانت نسبة الذكاء فيها على مقدار نسبة القوة ، لبلغت ما لم تبلغه نواطح السحاب الأمريكية من الغاية التي ينقطع دونها الدرك !

على أن الجمال الطبيعي قد يقوم في بعض مظاهره على القوة والوفرة دون الذكاء ، كما ترى في العواصف والبراكين ، ولكن الذكاء إذا أعوز في الفن الصناعي ذهبت عاطفة الجمال فيه بدداً بين التنافر والغرابة ، إذ الطبيعة مجهولة الأسرار محجوبة المقاصد ؛ وقد استراحت عقولنا منذ النشأة إلى أن تلتمس لجهالتها العلل ، وتفترض لسفاهتها الحكمة ؛ وليس كذلك الفنان ، فانه مسئول أمام العقل عن العلة التي أجهد من أجلها قوته ، والغاية التي بدد في سبيلها ثروته . وحسبه من الذكاء ماينفي عنه العبث ؛ فاذا تيسرت له عظمة القوة في ظاهر من النظام ، كفاه ذلك في إنشاء الاعجاب واتقاء النقد ، لأن القوة والوفرة هما المصدران الأولان لنشأة الجمال في الفن

على أن فكرة القوة تختلف اختلافاً شديداً عن فكرة الجهد ؛ فكلما قلت الدلائل على هذه ، كثرت الدلائل على تلك . فالخفة والظرافة والأناقة والسراح من صفات الجمال ، لأنها تظهر من القوة أكثر مما تظهر من الجهد ؛ ولكن إنشاء مقامة من الحروف المعجمة أو الحروف المهملة كما صنع الحريري ، أو كتابة سورة من القرآن على حبة من الرز كما يصنع الخطاط السوري ، عمل لا يحدث في النفس شعور الجمال ، لأنه يدل على الجهد أكثر مما يدل على القوة ، ويدعو إلى الرثاء أكثر مما يدعو إلى الدهش . وفي التفصيل المحكم من كلام الله ، وفي السهل الممتنع من كلام الناس ، كل الفروق بين القوة والجهد

كذلك لا يستعجم الفرق بين الوفرة الصَّناع وبين الزخرف الأخرق ؛ فان سر الابداع في الوفرة أنها تضع اللون في مظهره ، والحسن في جوهره ، والمعنى في لفظه ، والشيء في مكانه ؛ أما الزخرف الأخرق فسَرَفٌ لا ينبئ عن غنى ، ورهق لا يسفر عن قدرة ، وجبّ لا يبلغك من ورائه نغم ! هو كل ما يملك الصانع من ثروة نثرها أمام عينيك في غير لباقة ولا تحفظ ، ليخفي بالرياء حقيقة العجز ، ويدفع بالزور تهمة العوز

***

إن ما قلته في الريازة ينطبق على الخطابة والموسيقى وسائر الفنون الابتكارية التي تفصح عن قوى كبيرة ووسائل وفيرة . فالخطيب الذي يبلبل الآراء بقوة كلامه ، ويسترقُّ الأهواء بسحر بيانه ، ويملك على الشعب نوازع القلوب فيرسله على رأيه ، ويُصَرِّفه على إرادته ، قد أوتي من القوة في الفن والعبقرية ما يحمل النفوس على الاعجاب بقدرته والانقياد لأمره . كذلك الموسيقي الذي يضبي المشاعر بسحر أنغامه ، والشاعر الذي يسبي العقول بقوة أسلوبه وسمو إلهامه ، كلاهما يعلن الجمال في قوة الفن التي يفرضها ، ووفرة الوسائل التي يعرضها ، وذكاء الروح الذي يفيض على عمله النظام والانسجام والمناسبة . والقوة والوفرة هما كذلك روح هذا الجمال وسره ؛ فاذا كان الانفعال الذي ينشئه الصوت أو القصيدة لطيفاً يحدث اللذة ، ولكنه ضعيف لا يحدث الطرب ، مدحت قريحة الفنان وأطريت عذوبة الفن ، ولكن الاطراء شيء آخر غير هتاف الاعجاب يبعثه سمو العبقرية وقوة الالهام في روائع الموسيقى وبدائع الشاعر

(للبحث بقية)

احمد حسن الزيات

أمس وغداً

للأستاذ أحمد أمين

قرأت مرة أن سرياً أمريكياً كان له مصانع ومتاجر، كأفخم ما يكون من مصانع ومتاجر، أصابتها النار فأتت عليها، وقدرت الخسائر بملايين الدولارات

وكان هذا السرى فى السابعة والستين من عمره، ليس له قوة الشباب، ولا أمل الشباب، ولا طموح الشباب؛ وكانت ثروته الضائعة ثروة العمر، ومجهود العمر، ونتيجة العمر

أتى اليه «مكاتب» يسأله عن هذه الكارثة وأسبابها ومقدارها فأجابه: «لست أفكر فى شىء من ذلك، إنما علك علىَّ كل فكرى الآن: ماذا أنا صانع غداً»

يعجبنى هذا الاتجاه العملى فى التفكير، فانه دليل الحياة، وعنوان القوة، ومبعث النشاط؛ فما دمتَ حياً ففكر دائماً فى وسائل الحياة، ووسائل السعادة فى الحياة؛ وتلك كلها أمامك لا خلفك، وفى الغد لا فى الأمس

لقد دل هذا السرى باجابته على أنه يقتنى عقلية أقومَ مما رعته النار، ونفسية خالدة لا تفنى بفناء المال

إن الحياة الناجحة تفكر فى الغد، والحياة الفاشلة تبحث فى الأمس. وقديماً قالوا: «إذا أفلس التاجر فتش فى دفاتره القديمة». وقال الشاعر وقد رأى بنى تغلب لا يعملون عملا جديداً مجيداً، ويكتفون برواية قصيدة قالها عمرو بن كلثوم التغلبى فى مدحهم:

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسئوم

ولأمر ما خلق الله الوجه فى الأمام ولم يخلقه فى الخلف، وجعل العين تنظر إلى الأمام ولا تنظر إلى الخلف، وأراد أن يجعل لنا عقلاً ينظر إلى الأمام وإلى الخلف معاً، وأن يكون نظره إلى الخلف وسيلة لحسن النظر إلى الأمام؛ فعكس قوم الفطرة الانسانية ونظروا بعقولهم إلى الخلف وحده، وقلبوا الوضع فجعلوا النظر إلى الخلف غاية لا وسيلة

من هؤلاء الذين نُكِّسوا فى الخَلق من إذا حدثتهم فيما هم صانعون غداً حدثوك عما صنعه آباؤهم الأولون، وكيف حاربوا وكيف انتصروا، وكيف سادوا العالم، وكيف وكيف. وهذا حق لو اتخذ وسيلة لعمل مستقبل، واستُحِثت به الارادة لعمل مستقبل، وضُرب مثلا لمعالجة مشاكل المستقبل؛ أما أن يكون غرضاً فى نفسه فحديث العجزة ومن أصيبوا بأنيميا «الفكر» وضعف الارادة

وممن نُكِّسوا فى الخلق هؤلاء الذين يثيرون العداوات القديمة والأحقاد القديمة بين رجال الأمة وقادتها؛ فاذا طالبتهم أن ينظروا إلى الأمام، ويتكيفوا بما يتطلبه المستقبل، أبوا إلا أن يذكروا لك تاريخ الأمس، وحزازات الأمس، وسخائم الأمس، وما دروا أنهم بهذا يعطلون مصلحة المستقبل وخير المستقبل، أو دروا ولكنهم الماكرون الخادعون. فليس يصح أن ينظر فى الأمس إلا لتجنب أغلاط الأمس فى المستقبل، والانتفاع بصواب الأمس وخطئه فى المستقبل

وممن نكسوا فى الخلق هؤلاء الذين جمدت عقولهم فاعتقدوا أن كل شىء كان خيره فى الأمس وشره فى الغد؛ فخير النحو ما وضعه سيبويه، وخير البلاغة ما قاله الجاحظ، وخير الفلسفة ما قاله ابن سينا وابن رشد والفارابى، وخير عصور الدين ما سبق من العصور، وخير الأخلاق أخلاق آبائنا، وأنه لم يبق فى هذا الزمن إلا الحثالة من كل علم وأدب ودين وخلق، وأن العالم فى ذلك كله سائر إلى التدهور دائماً، فأمس خير من اليوم، واليوم خير من الغد. فهذه العقلية لا تنفع للحياة وإنما تنفع للصوامع؛ ولا تنفع للجهاد وإنما تنفع للفناء؛ ولا تنفع لمن أرادوا أن يتبوءوا مكاناً فى الحياة وانما تنفع من أرادوا أن يتبوءوا مكاناً فى القبور. إن النحو الذى ننشده هو فى المستقبل لا فى الماضى؛ واللغة التى تصلح لنا وتؤدى مطالبنا فى الحياة هى فى المستقبل لا فى الماضى؛ والأدب الذى يمثل نزعاتنا حق تمثيل هو فى المستقبل لا فى الماضى؛ والأخلاق التى تلائم الموقف الاجتماعى الذى نقفه اليوم هى فى المستقبل لا فى الماضى؛ وليس لنا من الماضى إلا ما يصلح للمستقبل بعد غربلته وابعاد ما تعفن منه. إن موقفنا بين الماضى والمستقبل يجب أن يكون كموقف وجهنا فينا؛ وضعه الطبيعى فى الأمام؛ ولكن الانسان قد يلوى عنقه وينظر إلى الوراء إذا دعت الضرورة، ثم يعود سيرته الأولى من النظر إلى الأمام ويسير لوجهه ويمضى قُدُماً لشأنه؛ ولن ترى انساناً طبيعياً

لوى عنقه دائماً ، ونظر الى الخلف دائماً

وممن نُـكسوا فى الخلق هؤلاء الذين وقفوا ينتظرون القدر ؛ أولئك لم ينظروا للمستقبل ، ولـكن ينظرون الى ما يفعل بهم المستقبل ؛ أولئك أحجار ينفعلون ولا يفعلون ، ويتأثرون ولا يؤثرون ؛ وإنما مستقبلك فى يدك ولك دخل كثير فى صياغته ، فان شئت تكن فقيراً ، وإن شئت تكن غنياً – الى حد كبير – وإن شئت تكن سعيداً ، وإن شئت تكن شقياً ؛ وليس يستسلم للقدر إلا من فقد إرادته وأضاع إنسانيته

لقد أتى على الناس زمان كان الاستسلام للقدر عنوان « الولاية » ورمز القداسة ، وكلما أمعن الانسان فى التجرد عن الدنيا أمعن الناس فى تعظيمه وتبركوا به ولثموا يده ؛ ولـكن هذا تقدير الماضى ؛ أما تقدير اليوم والمستقبل فالولاية والقداسة فى العمل ، والولى أو القديس هو المصلح ، وهو الذى يبنى المجد بعمله لأمته وللأنسانية ؛ وهو الذى يواجه العمل فى شجاعة وإقدام ، لا الذى يفر من الميدان ؛ وهو الذى يرسم خطة العمل وينفذها ، لا الذى يعزى عن الـكوارث ويعود المرضى ويلطف وقع البؤس ؛ وهو الذى يشق الطريق لمحو الفقر عن الفقراء والبؤس عن البؤساء ، لا الذى يذرف الدمع ويوصى بالصبر على احتمال الفقر من غير حث على العمل ، والتفـكير فى طرق الخلاص من البؤس ؛ وليس الولى والقديس من يحلم بل من يعمل

مضى الزمن الذى كنا نرصد فيـه النجوم لنتطلب السعادة من سلطانها ، ونجتنب الشقاء فى أوقات نحسها ، وأصبحنا نشعر بأن النحس نحس الخلق وموت الارادة ، والسعادة حياة النفس وتفتح الأمل ، والمشى فى مناكب الأرض ، وإعمال اليد والعقل فى جلب الرزق ، وجلب الخير ، ودفع الشر ، ودفع البؤس والفقر

* * *

خير لك إن كنت فى ظلمة أن تأمل طلوع الشمس غداً من أن تذكر طلوعها أمس ؛ فلـكل من الظاهرتين أثر نفسى معاكس للآخر ، فى ترقبـك طلوع الشمس غداً الأمل والطموح الى ما هو آت ، وفى تذكرك طلوعها أمس حسرة على ما فات ، وألم من خير كنت فيه الى شر صرت فيه ، وفى ذلك معنى الفناء

وفرق كبير بين من يُلطَم اللطمة فلا يكون له وسـيلة إلا البكاء ، وتَـذَكُّـر اللطمة ثم البكاء ، ثم تذكر اللطمة ثم البكاء ، وبين من يلطم اللطمة فيستجمع قواه للمكافحة . والحياة كلها لطمات ، وأعجز الناس من خارت قواه أمام أول لطمة فهرب . ولو أنصف الناس لقوموا الناس بمقدار كفاحهم ، لا بمقدار فشلهم ونجاحهم

* * *

شر ما ألاحظ فى الشرق حنينه الشديد الى الماضى ، لا أمله القوى فى المستقبل ، واعتقاده أن خير أيامه ما سلفت لا ما قدمت ، وإعجابه الشديد بأعمال الماضين واهمال المعاصرين ؛ له منظاران : منظار مكبِّر يلبسه إذا نظر الى الماضى ، ومنظار مصغِّر اسود يضعه إذا نظر الى الحاضر والمستقبل . يلذه أن يطيل البكاء على الميت ، ولا يلذه أن يتدبر فيما يجب أن يفعله الأحياء ؛ يستسهل النفقات مهما عظمت على الميت ، ويستكثر نفقات الطبيب وأثمان الدواء للمريض . يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تدل على عظم الماضى ، ولا يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تبعث الأمل فى المستقبل ؛ ففى أعماق نفوسهم أن قول القائل : « ما ترك الأول للآخر » خير من القول : « كم ترك الأول للآخر » . ويلوكون دائماً : « لا جديد تحت الشمس » ، ولا يعجبهم أن تقول إن كل ما تحت الشمس فى جدة مستمرة ، والمستقبل مملوء بالجديد . وإذا رأوا كلمة فى كتاب قديم تدل – ولو دلالة كاذبة – على نظرية جديدة طاروا بها فرحاً ، لأن ذلك يلائم ما فى نفوسهم من تعظيم الماضى وتحقير الحاضر والمستقبل . هم يعيشون فى أحلام ، ولا يريدون أن يعيشوا فى حياة واقعة ، وحول هذه المعيشة الحالمة ينسجون دائماً ما يوافقها ويمازجها ويسايرها ؛ يكتفون بالأمل أن ينعموا بالآخرة ؛ وماذا عليهم لو عملوا لينعموا فى الدنيا والآخرة ؟

أحمد أمين

فى العدد القادم

ابتداء من العدد القادم سننشر فصولا قيمة فى (نظرية النسبية الخصوصية) تتناول الـكلام (١) فى الزمان ونسبيته ، (٢) وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية ، (٣) مبادئ الميكانيكا الحديثة ، (٤) مبادئ الديناميكا الجديدة ، (٥) كون ينموفسكى والفاصلات الفراغية والزمانية ، بقلم الدكتور الفاضل الأستاذ اسماعيل أحمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية

٢ ــ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ورأيتُ المجنونين يدخلان معاً فكأنما سدّا الباب وسوّياه بالبناء ، وتركا الغُـرفةَ حائطاً مُصمتاً لا بابَ فيه مما اعترانى من الضيق والحرج ؛ وقلت فى نفسى : إنه لا مذهبَ للعقـل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه ، فأرى أن أدَعهما وأكونَ أنا أصرِّفُهما ؛ وبا ربما جاء من النوادر فى اجتماع مجنونين ما لا يأتى مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره ؛ غير أنى خشيتُ أن أكون أنا المجنون بينهما ، ثم لا آمن أن يَثِـب أحدهما بالآخر إذا خطرتْ به الخطْرةُ من شيطانه ، فرأيت أن يكونَ لى ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقّ بهِ العونُ فلا أقلّ من أن يطول به الصبر . . وكان إلى قريب منى الصديق ا . ش . فأرسلت فى طلبه

أما هذا المجنونُ الثانى الذى جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من قبل ، وهو كالـكتاب الذى خُـلِّطت صحفُه بعضها فى بعض فتداخلتْ وفسد ترتيبها ، وانقلب بذلك العلمُ الذى كان فيها جهلاً وتخليطاً يثبُ الـكلام بعـد كل صفحة إلى صفحة غريبة لا صلة لها بما قبلها ولا ما بعدها

وهو طالبٌ أزهرىٌّ كان أكبر همّـه أن يصير حافظاً كالحفاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء ، فجعل يستظهرُ كتاباً بعد كتاب ومتْناً بعد متن ؛ وكانت له أُذُنٌ واعيةٌ فكل ما أفرغ فيها من درس أو حديث أو خبر ، نزلَ منها كالنقر على آلةٍ كاتبة ، فينطبعُ فى ذهنه انطباعَ الـكتابة لا تُمحى ولا تُنسى

ثم الْتاثَ هذه اللُّوثةَ وهو يحفظ متناً فى فقه الشافعى رضى الله عنه ، فغبرَ سنين يتحفظـه ، كلما انتهى إلى آخره نسيه من أوله ؛ فيعود فى حفظه وربما أثبتَ منه الشيء بعد الشيء ، ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول ؛ فلا يزال هذا دأبه لا يملُّ ولا يجد لهذا العنـاء معنى ، ولا يزال مقبـلاً على الـكتاب يجمعه ثم لا يزال الـكتابُ يتبدَّدُ فى ذاكرته .

وترك المعهد الذى هو فيه وتخلى فى داره للحفظ وأجمع أن لا يدع هذا المتن أو يحفظه كأن فيه الموضعَ الذى فارقه عقله عنده ، وبذلك رجع المسكين آلة حفظ ليس لها مَساك ؛ وأصبح كالذى يرفع الماء من البحر ، ثم يلقيه فى البحر ، لينزح البحر . . .

* * *

وجاء ا . ش . فقلت له وأومأتُ إلى المجنون الأول : هذا نابغةُ القرن العشرين

قال : وهل انتهى القرنُ العشرون فيعرف مَن نابغتُـه ؟

فقلت للمجنون : أجبـه أنت . فسأله : وهل بدأ القرنُ الواحد والعشرون ؟ قال لا

قال : فإن هذا الذى إلى جانبى نابغة القرن الواحد والعشرين . . . فكما جاز أن يكون هو نابغةَ قرن لم يبدأ ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته

قلتُ : ولـكنك زدتَ المشكلة تعقيداً من حيث توهمتَ حلها . فكيف يكون معك فى آن وبينك وبينه خمس وستون سنة ؟

فنظر نظرةً فى الفضاء ، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى اللاشىء ... ثم قال : هذه الأمورُ لا تشتبه إلا على غير العاقل ... وكيف لا يكون بينى وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقـدَّمه فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة . . . ؟

قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : مما حفظناه عن الحسن : أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو أدركوكم لقالوا شياطين . . .

فضحك الأول وقال : إنه تلميذى

قال الثانى : لقد صدق فهو أستاذى ولـكنه حين ينسى لا يذكّـره غيرى . . .

قلت : لا غرو ؛ « فما حفظناه » عن الزُّهرى : إذا أنكرت عقلك فاقدحه بعاقل . . .

فغضب نابغـة القرن العشرين وقال : ويحٌ لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحد للفضل ، مع جنونه وخبـله . أيذكّرنى وهو منذ كذا وكذا سـنةً يحفظ متناً واحداً لا يمسكه عقله إلا كما يُمسك الماء الغرابيل ؟ صدق والله من قال : عدوٌ عاقل خيرٌ ؛

خير ؛ خير . فقال الثانى : خير من صـديق جاهل ، هأنذا قد ذكرتك من نسيان ، وهأنت ذا رأيت

فضحك النابغة وقال : ولكنى لم أرد أن أقول هذا ، بل أريد أن أؤلف كلاماً آخر . . . . . عدوٌ عاقل خيرٌ ، خيرٌ ، خيرٌ ؛ خير من مجنون جاهل . . . .

* * *

ورأيت أن فى التقاء مجنونين شيئاً طريفاً غيرَ جنونهما ، وصح عندى أن المجنون الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورهما فنٌ ظريف من التمثيل إذا وَجدا من يُبصّرهما فى الحديث ، ويستخرج ما عندها ، ويستكشفُ منهما قصتهما العقلية ... ...

ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أُذُنٌ فى غير الأذُن ، وعينٌ فى غير العين ، وأنفٌ بغير الأنف ؛ إذ تتلقى أدمغتهم أصواتاً وأشباحاً وروائح من ذات نفسها لا من الوجود ، وتدركها بالتوهم لا بالحاسة ، فتَتَخلّقُ هواجسهم خَلْقاً بعد خَلق ، وتخطر الكلمة من الكلام فى ذهن أحدهم فيخرج منها معناها يتكلم فى دماغه أو يمشى أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعل أفعالاً أخرى

وبينا أنا أدير الرأىَ فى اخراج فصل تمثيلىّ من الحوار بين هذين المجنونيين [1] ، إذ قال (نابغة القرن العشرين) : صَهْ ، إن جرس « التلفون » يدق

قال ا . ش : لا أسمع صوتاً وليس هٰهنا تلفون

فاغتاظ المجنون الآخر وقال : إنك تَتَقَحمُ على النوابغ ولست من قدرهم ، وما عملك إلا أن تنكر ، والانكارُ ، ويلك ، أيسر شىء على المجانين وأشباه المجانين ، والعامة وأشباه العامة ؛ وقد أنكرت نبوغه آنفاً وأراك الآن تنكر « تلفونه » ......

قال ا . ش : وأين التلفون وهذه هى الغرفة بأعيننا ؟

فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال : صه ويحك لقد خلطت علىّ ؛ إن الجرس يدقُّ مرة أخرى وأنا لا أريد أن أكلمها حتى يطول انتظارُها ، وحتى تدق ثلاث مرات ، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينها فى صوتك ولغطك

قال المجنون الآخر : هى صاحبته التى يهواها وتهواه ؛ وقد استهامها وتيّمها وحيّرها وخبّلها ، حتى لا صبر لها عنه ؛ فوضعت له تلفوناً فى رأسه ... ...

قال « النابغة » : وهذا التلفون لا يُسمعني صوتها فقط ، بل هو ينشقنى عطرها أيضاً . وقد تكلمنى فيه الملائكة أُحياناً ، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فانها غيورٌ تخشى سطواتها على اللائى تغار منهن ؛ ولولا ذلك لكلمتنى فى هذا التلفون إحدى الحور العين ... ...

قلنا : أو تغار منها الحورُ العين ؟

قال المجنون الثانى : بل الأمر فوق ذلك ، فان الحور العين يشتُمنها ويلعنها ؛ « فما حفظناه » هذا الحديث : لا تؤذى امرأةُ زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ؛ فانما هو عندك دخيلٌ يوشك أن يفارقك الينا

قال (نابغة القرن العشرين) : ويلى على المجنون ! إنه يريد أن يخلوَ له موضعى فهو يتمنى هلاكى وانتقالى وشيكا من هذه الدنيا . وهو يقول بغير علم لأنه أحمق ليس له عُقدةٌ من العقل ، فيزعم أنها تؤذينى ، ولوهى آذتنى لغضبت قبل ذلك ، ولوغضبت لرفعت التلفون . صه إن الجرس يدق

* * *

قال ا . ش : إن للنوابغ لشأناً عجيبا ، ففى مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجته وتركت له غلاما فتزوج أخرى وهو يعيش فى دار أبيه . فلما كان عيد الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يعطه . وهو رجل يحفظ القرآن فذكر قصة ابراهيم عليه السلام ورؤياه فى المنام أنه يذبح ابنه ، فخُيِّل اليه أن هذا باب الى النبوة وأن الله قد أوحى اليه ، فأخذ الغلام فى صبيحة العيد وهمَّ بذبحه . ولو لا أن صرخ الغلام فأدركه الناس فاستنقذوه ...

قال (نابغة القرن العشرين) : هذا مجنون وليس بنابغة ؛ بل هذا من جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حدته . وقد رأيته فى البيمارستان حين كنت أنا فى المستشفى ... فكان يزعم أنه ائتمر فى ذبح غلامه بارادة الله . ولو كانت إرادةَ الله لنفذت بالذبح ، ولو كان الأمر وحياً لنزل عليه من السماء كبش يذبحه ...

(١) سيأتى هذا الفصل التمثيلى فى مقال آخر

وهكذا أنا فى المنطق (نابغة القرن العشرين)

ثم إنه أشار الى المجنون الثانى وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة كاملة

قلت : ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلمَ عُدتَ فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدا لى أنه يتمنى هلاكى ليكون هو نابغة القرن العشرين . فمعنى الكلام الآن : أنه لو عاش خمسا وستين سنة « يحفظ المتن » لما بلغ مبلغى من العلم . هذا رجل نصفه ميتٌ جنوناً موتا حقيقياً ، ونصفه الآخر ميت جهلاً بالموت المعنوى

قال ا . ش : حسبُهُ أن يقلدك تقليدَ العانِى لأمامه فى الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فانه تلميذك

قال المجنون الثانى « مما حفظناه » : لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار ... ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر ... ولما رأيته ناسياً فذكرته ونبهته أن الصلاة لا تجوز بالشعر ، التفت الى وهو راكع فسبَّنى وشتمنى وصرخ فىَّ وقال : ما شأنك بى هل أنا أصلى لك أنت ...

فغضب « النابغة » وقال : والله إنْ تحسبوننى إلا مجنونا فتريدون أن يقلدنى هـذا الأحمقُ الذى ليس له رأىٌ يمسكه .. ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليد نابغة القرن العشرين

قلنا : هذا عجيب ، وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لا أعدّكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك

قال ا. ش : هذا لم يُعرف مثلُه فكيف نعرفه ، ولم يتوهمه أحد فكيف نتوهمُه ؟

وقلت أنا : لعلك رأيت نفسك فى الرؤيا

قال : لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتَها ؛ وهذا نصف الصواب ؛ وما دمت أستاذى ، فلو أننا اختلفنا فى رأى لكان خلافك لى صوابا لأنه منك ، وكان خلافى لك صوابا لأنه منى ؛ فأنت (غير مخطىء) وأنا مصيب ، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظلُّ أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . . .

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) فى الرؤيا ولكنى رأيته فى المرآة عند الحلاق . . . ورأيته يقلدنى فى كل شىء حتى فى الاشارة والقَوْمة والقَعْدة ، ولكنى صرختُ فيه وسببتُهُ ففتح فمه ثم خافنى ولم يتكلم . . .

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة

قال ا . ش : لقد قلتَها مرتين كلتاهما بمعنى واحد ، فما معناك فى هذه الثالثة ؟

قال : هذا السِفرُ يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى ، ويستدلُّ بذلك بأنى صليتُ بالشعر وأنى شتمته وأنا راكع ؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا راكع ثواب له . . . ولو كان نابغةً لعلم أن الشعر كان فى مدح دولة النحاس باشا وأولى النُّهى

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو فى مدح دولة النحاس باشا

قال : لم أصلِّ به ولكن خطر لى وأنا أصلى أنى نسيتُ القصيدة فأردت أن أتحقق أنى لم أنسها .... فاذا أنا نابغة القرن العشرين فى الحفظ وهى ستة أبيات . لا كهذا المعتوه الذى صبر على المتن صبرَ الغريب على الغُربة الطويلة ومع ذلك لم يحفظه

قال ا . ش : فأمْلِ علينا هذا الشعر . فأملى عليه (١)

يا حليف السُّهْد قل لى ... أين مَنْ فى الدهر خالْ
إن تكن تهوى غزالاً ... أكحل العينين مالْ
أنا أهواها ولكن ... لا سبيل إلى الوصالْ
منذ ولَّت قلتُ مهلاً ... منذ غابت فى خيالْ
أنا مجنونٌ بليلى ... ليلَ يا ليلى ! تعالْ

قلنا ولكن ليس هذا مدحا . فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أنى أقول فى الغزَل ، أما المدح فهو :

شغف الورى بمناصب وأمانى ... وشغفت يا نحاس بالأوطان
حسبوا الحياة تفاخرا وتنعما ... وحسبتها لله والأوطان

ثم أُرْتِج عليه فسكت . قال المجنون الآخر : أنها ستة أبيات ، وقد نسيت أربعة ، ولست أريد أن أذكرك

فقال (النابغة) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى ..

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه

ونظر إلى اللاشيء فى الفضاء ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتغى فى المدح غيرَ أولى النُّهى   أو صادق[١] أو شوق أو مطران

ثم أمر ا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، أنظر إلى فوق ؛ فنظر ، ثم قال انظر إلى تحت ؛ فنظر ثم سكت

قال ا . ش : وبعد ؟ قال : وبعدُ فان الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت . . .

* * *

وكان الضجر قد نال مني ، فرجوت ا . ش . أن يلبث معهما وأذنت لنابغة القرن العشرين أن يلقانى فى الندىّ وانصرفت

قال ا . ش وهو يُنبِّئني : فما غبت عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بى الظلم ، وإن (الرافعى) رجل عَسُوفٌ ظالم لأنى أكتب له كل مقالاته التى ينشرها فى (الرسالة) ... وأجمع نفسى لها ، وأجهدُ فى بيانها ، وأذيب عقلى فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحلها ويضع توقيعه عليها ويبعث بها الى المجلة ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ولا يدفع لى عن كل مقالة إلا قرشين[٢] ...

قال ا . ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هـذه المقالات الى المجلة فتقبض فيها الذهب ، قال : إن هناك أسراراً أنا مُخصِيها وكاتمها ، ولا ينبغى أن يعلمها أحد فانها أسرار ...

قال له : فدع (الرافعى) واكتب لى أنا هذه المقالات وأنا أعطيك فى كل مقالة ذهبَين لا قرشين

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعى ، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعى كلامه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا حطاً من قدر نابغة القرن العشرين . وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار ...

قلت : ثم جاء المجنونان فى العشيّة الى الندىّ

(لها بقية)   مصطفى صادق الرافعى

إلى الأستاذ ح . ع فى بغداد : سرنى كتاب الصديق الكريم ، ولكن ما قصة الحجر الأخضر الذى يشبه الزمرد ؟   الرافعى

---

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين . . .

(٢) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيرا فجعلها عشرين قرشاً ....؟..

١ ـ الصقالبة فى الرواية العربية

وفى الدولة الأندلسية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يعن العرب فى فتوحاتهم الأولى بتمييز الأمم والأجناس الأجنبية تمييزاً واضحاً ، وإذا استثنينا الفرس والروم والقبط والبربر والقوط ، فان هذا التصنيف للأمم والأجناس الأجنبية يتخذ فى الرواية الاسلامية صفة التعميم الغامض ، فنجد كلمات « الأعاجم » و« النصارى » و« الفرنج » تطلق على أمم وأجناس متباينة لا يمكن تحديدها وتمييزها إلا على ضوء الحوادث والظروف ؛ بل نجد كلمة « الروم » ذاتها تطلق فى الرواية الاسلاميـة الأولى على الرومان وعلى سكان الدولة الشرقيـة (الدولة البيزنطيـة) اليونانيين وأحيانا على سكان المستعمرات الرومانية مثل الشام وطرابلس ؛ وتطلق كلمة الفرنج لا على أمة الفرنج (الفرنـكيين) وحدها ، بل على معظم الأمم والممالك النصرانية التى كانت تعيش يومئذ فى غرب أوروبا وفى وسطها ؛ ولم تمن الرواية الاسلاميـة بالتصنيف والتحديد فى هذا الميدان إلا منذ القرن الثالث الهجرى ، وفى القرن الرابع نجد هـذا التصنيف القوى أكثر وضوحا سواء من حيث اللفظ أو المعنى ، فنجد الرواية الاسلاميـة تحدثنا عن الفرنج والمان (الألمان) والبلغار والروس والصقالبة ، وعن انـكبردية (بلاد اللومبارد) وافرنسة وبرطانية ؛ وهذا التقدم فى تصنيف الأجناس والأمم يرجع الى تقدم مماثل فى الجغرافية الاسلاميـة ، والى تقدم العلائق والصلات الدبلوماسـية والتجارية بين الأمم الاسلامية والأمم النصرانية

وقد كانت كلمة « الصقالبـة » من أغمض الـكلمات التى أطلقت فى الرواية الاسلامية على الأجناس الأجنبية الدخيلة ؛ ولم يبق اليوم ثمة غموض فى تعريف البلدان والأمم الصقلبية ، فهى تشمل قسما من بلاد البلقان وتشمل صربيا ورومانيا وروسيا حتى الشرق الأقصى وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا ؛

وبعبارة أخرى هى الأمم التى تعرف اليوم بالأمم « السلافية » أو السلافونية « Slavs ; Slavonians. » . ولـكن كلمة « الصقالبة » فى الرواية الاسلامية كانت بعيدة جدا عن أن تشمل مثل هـذا التصنيف الواسع ، ومع أننا نراها مستعملة فى الرواية الاسلامية منذ القرن الثانى للهجرة ، فانها لبثت دائما لفظاً غامضا متباين المعنى . فمثلا يستعملها البلاذرى ، وهو من أقدم رواة الفتوح الاسلامية فى أكثر من مناسبة ؛ فيقول لنا إن المنصور « نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط ونصارى من المصيصة وكان مروان أسكنهم إياها [١] » ؛ ومن الصعب أن نضبط المعنى الذى ينصرف اليه لفظ « الصقالبة » فى هـذا العصر المتقدم . بيد أنه يلوح لنا أن الـكلمة كانت تطلق حتى القرن الثالث على سكان بلاد الخزر (قزوين) والقوقاز وما اليها ، ثم اتسع معناها نوعا وأطلقت على سكان البلقان المتـاخمين للدولة البيزنطيـة مثل البلغار ؛ وقد كان الصقالبة فى الواقع يستعمرون هذه الأنحاء فى تلك العصور ، وكانت لهم فى بلغاريا مملـكة « صقلبية » حقيقية . وكان معنى الكلمة أوضح وأدق فى الغرب الاسلامى ، فى الأندلس وصقلية والمغرب ، حيث كانت تطلق على الأجناس الصقلبية الحقيقية التى تسكن حوض الدانوب الشرقى والأوسط وألمانيا وضفاف الادرياتيك ، ويؤتى منها الى الأندلس والمغرب بالخصيان والأسرى [٢] ؛ ويعرف الشريف الادريسى بلاد الصقالبة بأنها هى شبه جزيرة البلقان ، وهو فى الواقع معنى أقدم من عصر الادريسى ، بيد أن الادريسى يشير على ما يظهر الى التحديد السياسى حيث كانت مملـكة الصقالبة (بلغاريا) تسود يومئذ بلاد البلقان [٣]

وعرف الصقالبة وعرفتهم القصور الاسلامية فى عصر مبكر جدا ، فمنذ الدولة الأموية نجدهم فى بلاط الخليفة وفى الجيش ؛ ولـكن نفوذهم الحقيقى فى القصور الاسلاميـة يبدأ منذ القرن الرابع الهجرى ، فنراهم عندئذ يتقلبون فى الوظائف والمهام العليا

(١) فتوح البلدان ـ مصر ـ ص ١٧٠ (٢) ويرى البعض أن كلمة صقالبة العربية مشتقة فى الأصل من كلمة Esclave الإفرنجيـة (الفرنسية) ومعناها الرقيق والأسير (راجع رينو Invasions des Sarrazins en France ص ٢٣٧ والمراجع) (٣) قارن المستفرق بارتولد Ency. de l'Islam; Slaves:

بعد أن كانوا يقتصرون على تقلد الوظائف والمهام الصغرى فى البلاط وداخل القصر ، مثل وظائف الخدمة السلطانية والنظر على الشؤون المنزلية المحضة كشؤون المائدة والثياب والرياش ، ونراهم يسـيطرون على شؤون الدولة العليا ، فيتولون الوزارة والقيادة والوصاية أحيانا ويسود نفوذهم فى القصر وفى الحـكومة . وقد كان هذا النفوذ يرجع فى الغالب الى سياسة الدول والأسر ، تعمل لرعايته وإيثاره لبواعث سياسية واجتماعية ؛ وسنقتصر هنا على معالجة مركز الصقالبة ونفوذهم فى الأندلس حيث كانت لهم دولة وكان لهم أيما نفوذ

— ٢ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبـة واتخاذهم أداة وبطانة ؛ وكانت الظروف العصيبة التى أحاطت بقيام الدولة الأموية فى الأندلس ، والخطوب والثورات الجمـة التى تفجرت حول عبد الرحمن الداخل والتى أثارها خصومه ومنافسـوه من زعماء القبائل العربية ، هى التى حملته على الاسترابة بالعرب وعلى اصطفاء البربر والموالى الذين آزروه وقت المحنـة ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته [١] ؛ وقد حافظ خلفاء الداخل على هـذه السياسة فى جوهرها منذ البداية لشعورهم بأهميتها وضرورتها لمقاومة نفوذ القبائل الخصيمة التى كانت تتقاسم السلطان والنفوذ قبل قيـام الدولة الأموية ؛ وظهر الصقالبة بكثرة لأول مرة فى البلاط الأندلسى فى عهد الحكم المنتصر حفيـد عبد الرحمن الداخل (١٨٨ ـ ٢٠٦ هـ) ؛ وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك الباذخ ، فغص البلاط الأموى فى عصره بالخدم والحشم من المماليك والصقالبة حتى بلغ عددهم زهاء خمسة آلاف [٢] وأخذ نفوذ أولئك الصقالبـة يقوى شيئاً فشيئاً داخل القصر والبطانة . بيد أنه لبث مدى حين بعيدا عن شؤون الدولة العليا قاصرا على شؤون القصر والخاص

وفى عهد الناصر قوى نفوذ الصقالبة وازدهر ؛ وكان الناصر يجرى على سـنة سلفه عبد الرحمن الداخل فى الاسترابة بالقبائل

(١) راجع نفح الطيب ـ مصر ـ ج ١ ص ١٥٦ (٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨

العربية ذات العصبيــة والبأس وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ؛ وكان يعمن في الاستئثار بالسلطة حتى لقد ألغى وظيفة الحاجب ، وجمع مقاليـد الحكم كلها فى يده ؛ وعهد بالمناصب الكبيرة الى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ؛ وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ؛ وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من النفوذ ما لا يوليه سواهم [١]

ومنذ أواسط عهد الناصر يبدأ نفوذ الصقالبة الحقيقى فى بلاط قرطبة . وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق فى الأندلس كما قدمنا على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية الحقيقية ؛ ولكنها غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يخـدمون فى البطانة وفى الجيش ؛ ولما استحكم نفوذ الصقالبة واستأثروا بحماية الخليفة والقصر ، أضحت الكلمة تطلق منـذ عهد الحكم المستنصر على الحرس الخلافى [٢] وقد انتهت الينا عن صقالبة الأندلس فى هذا العصر رواية شـاهد عيان هو الرحالة البغدادى ابن حوقل الذى زار قرطبة والزهراء فى أواخر عهد الناصر أو أوائل عهد ابنه الحكم المستنصر وبحث أحوال الصقالبة وكتب عنهم فى رحلته ما يأتى :

« وبالأندلس سلاح كثيرة ترد إلى مصر والمغرب ، وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبى فرنجة وجليقية . والخدم الصقالبة وجميع من على وجـه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد ؛ وجميع ما يسبى الى خراسـان من الصقالبة فباق على حالته ، ومقر على صورته . وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطرابذنده يشـق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وأفرنجة وانكبرده وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله » [٣] ، ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسيين كانوا مزيجا من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين (أهل افرنجـة) واللومبارديين (اهل انكبردة) والايطاليين (من قلوريه) وكذلك الروس وهم أهل القسم الأول من بلاد الصقالبة . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا من الجنسين بواسطة خوارج البحر (القرصان) وتجار الرقيق ، وتحملهم سفن القرصان أو سفن البنادقة إلى مختلف ثغور البحر الأبيض ؛ وكانت الكنيسة تقاوم هـذه التجارة المثيرة وتحرمها ؛ بيد أنها كانت تجرى فى رومة عاصمة النصرانية ذاتها ؛ وفى معظم الثغور الايطالية . وكانت الحرب مصدرا آخر لجلب هؤلاء الصقالبة ، ففى كثير من الغزوات الاسلامية المنظمة لأمم النصرانية ؛ وفى الحملات والغزوات البحرية الناهبـة كان المسلمون يغنمون كثيراً من السبى والأسرى صغارا وكبارا ، ومنهم الصقالبة الذين يخـــدمون جنداً مرتزقة فى معظم الجيوش النصرانية ؛ هذا عـدا الرقيق والأسرى من مختلف الجنسيات والأمم يتدفقون على الثغور والعواصم الاسلامية عقب كل فتح أو غزوة ناجحة [١] وكان الصقالبة يختارون فى الغالب أطفالا من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادئ الاسـلام ؛ وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد ، وبلغوا فى عهد الناصر قسـطا وافرا من السلطان والنفوذ ، واحـتلوا الوظائف الكبرى فى القصر وفى الأدارة والجيش ، وأحرزوا الضـياع والأموال الوفيرة ؛ وفاق عددهم فى عهد النـاصر أى عهد آخر حتى قدر بعض المؤرخين عددهم يومئـذ فى القصر والبطانة بثـلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى ستة آلاف وثمـانين ، وفى رواية ثالثة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ؛ وعلى أى حال فقد كان منهم الحرس الخـلافى ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم فى السلطان والنفوذ ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم [٢] بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجـدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ودرى صاحب الشرطة ؛ ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص [٣]

(١) Dozy : Hist des Musulmans d'Espagne ; II P 153
(٢) Lévy - Provencal : Ency de l'Islam - Slaves
(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥

(١) راجع رينو ــ الكتاب المشار اليه ص ٢٣٧ ــ ٢٣٩
(٢) Dozy ; idib ; II p. 153 ــ وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣ ــ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١

وكان لهذه السياسة غير بعيد أسوأ الأثر فى انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ؛ وكانت هزيمة الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة (الانديجا) أمام نصارى الشمال (٣٢٧ هـ – ٩٣٩ م) ترجع من وجوه كثيرة الى هذا الانحلال المعنوى الذى سرى إلى الجيش من جراء الاحقاد القومية والطائفية (١)

للبحث بقية محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) Dozy ; idib ; II p. 153

من ذكريات لبنان

الحـــذاء الذهبي

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« استيقظت ! »

وكانت قد أغفت ، وهى قاعدة على دكة تحت شجرة صنوبر ، وذراعها على سور النافورة ، ويسراها على حجرها ، ثم فركت عينيها فقلت :

« والآن أرجو أن يلهمها الله ألا تغير جلستها ، فانها هكذا أحلى ! »

فحطت ساقاً عن ساق ، وتناولت حقيبتها الصغيرة وفتحتها ونظرت فى المرآة ، ثم أخرجت منديلاً ، وجعلت تلمس به وجهها فى مواضع فقلت :

« ولها جيد جميل أيضاً – وأناملها مخضبة . . . الآن صرت لا أرى عيباً فى قول من يقول إن هذا من دم العشاق ! »

فابتسمت وقالت – كأنها تحدث نفسها – « ماذا يقول هذا الرجل ؟ »

فقلت ، وأنا أنكث الأرض بعود صغير فى يدي : « إنه يسأل : أتراك زوجته ؟ »

فزوت ما بين عينيها وقالت : « زوجته ؟ زوجة من ؟ »

قلت : « زوجتى أنا ! »

فصاحت : « إيه ؟ »

قلت : « زوجتى . . . تعرفين الكلمة ؟ . . . يتهجونها هنا بالزاى والواو والجيم ، وأتهجاها أنا بالحاء والباء و . . . »

وكانت تنظر إلىّ مبهوتة ، ثم ابتسمت وسألتني :

« هل تعني أنك لا تستطيع أن تعرف زوجتك حين تراها ؟ »

فأهملت السؤال وقلت : وأنا أشير بالعود الذى فى يدى :

« إنك هى . . . أو أنت عيناها ، وجيدها وساقاها . . . »

فخيل إليها أنها فهمت وقالت : « أوووه ! ألك زمان طويل لم ترها ؟ »

قلت : « طويل جداً . . . ربع ساعة ! »

فصدمها هذا فقطبت وقالت : « إنك تسخر مني » ومدت يدها إلى الحقيبة

فقلت : « لا تعجلى ! ألم أقل إنك هكذا أحلى ؟ وعلى ذكر ذلك أسألك : كيف يمكن أن تأكلى بهذا الفم الصغير ؟ »

فقالت : « إنى ذاهبة . . . اسمح لى »

قلت : « إنها ذاهبة ؟ ؟ هل سمع أحد بمثل هذا ؟ ليت شعرى كيف تستطيع أن تمشى فى مثل هذا الحذاء الدقيق ؟ ثم تجيء زوجتى فتوسعني تأنيباً ! »

وكانت تهم بالقيام ، فترددت ، ثم سألتنى

« من أنت ؟ إنى أريد أن أعرف »

فقلت ، وعيني إلى الأرض : « إنها تسأل ؟ بداية حسنة على كل حال – خطوة فى الطريق القويم – ومتى رأيت امرأة تعني بأن تسأل من يكون الرجل ، فاعلم بأن الأمل فى . . . . »

فانتفضت ثمة وقالت وهى عابسة : « سأذهب »

ولكنها لم تكد تخطو خطوة واحدة حتى صرخت وارتدت فانحطت على الدكة ، وانحنت فمدت يديها إلى قدمها اليمنى ، فأسرعت إليها أسألها ما الخبر ، وكانت قد خلعت الحذاء ودست فيه أصبعين تتحسس بهما ، فقالت : « مسمار ! ماذا أصنع ؟ »

فأخذت الحذاء ونظرت فيه ثم قلت : « من كان يتصور أن هذا الحذاء الصغير يمكن أن يسكنه مسمار ضخم كهذا ؟ والآن هل يمكن أن يكون فى حقيبتك عتلة أو معول أو فأس أو أى شيء أصغر أو أكبر ندق به هذا المسمار الملعون ؟ »

فقالت وهى تضحك : « لا تمزح من فضلك ! »

قلت : « هذا أحسن - نعم يجب أن نضحك إذا لم نستطع أن نفعل ما هو خير من ذلك ؟

فقالت : « ولـكن ألا تستطيع شيئاً ! »

وتلفتت فقلت : « أستطيع أن أضع النعـل على وجهي ، وأقبض على رأس المسمار بأسناني ، وأشد . . . هكذا »

فصاحت بي وهي تتلوى من الضحك « أرجو .. أرجو .. »

فقلت : « أعرف ما تريدين بغير حاجة إلى رجاء . . . أن أحملك إلى حيث تقصدين »

فغاض الابتسام ، واعتدلت في جلستها وقالت : « أتظن أني أسمح لك بذلك ؟ مستحيل ! »

قلت : « ولم لا ؟ إنك أخف من الريشة ، وفي وسعي - بعد قليل من التدرب - أن أظهر بك على المسرح ، وأمشي بك على الحبل ، محمولة على أسناني »

فضحكت ثم قالت . « إنك فظيع ! »

قلت : « بالعكس . . . إني لطيف جداً . . . »

فقاطعتني ضاحكة وقالت : « دع لطفك الآن . . . »

- قبل أن تحترق به ؟ هذا مطلب بعيد !

- وقل لي ما العمل ؟

فقلت : « العمل أن تجلسي حيث أنت - وإن كنت سأحرم منظرك الفاتن وأعود أنا إلى « القهوة » ثم أكر إليك بالحذاء في يدي - لا في رجلي - بعد أن نطرد هذا الطفيلي »

* * *

وانحدرت إلى حيث « القهوة » وعثرت مرتين أو ثلاثا ، فآمنت أن العجلة من الشيطان ، ولـكني مع ذلك ، وعلى الرغم مما أصابني ، ظللت أعدو كأن ورائي ألف كلب من كلاب الصيد ، وحرت بين أشجار القهوة فوقفت أنادي : « يا حاج الياس ! يا حاج الياس ! »

فأقبل عليّ اثنان من أعوانه ؛ فأشرت اليهم بالحذاء وطلبت شيئاً أخرج به المسمار

وكانت زوجتي - مع أولادنا - على مقربة مني ، وكانت تراني ولا أراها ، فقالت : « ما هذا ؟ »

فدرت حتى واجهتها وقلت ، وأنا أمشي اليها :

« هذا ؟ آه ! هذا حذاء جميل ... ... »

فدهشت وسألتني : « من أين جئت به ؟ أين وجدته ؟ »

قلت : « لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لـكم . . . صدق الله العظيم ... خذي جربيه ! اخلعي هذا ... »

وانتزعت حذاءها الأيمن ، وذهبت أعدو به

* * *

« ولـكن هذا ليس حذائي ؟ »

قلت : « يا فتاتي المتبطرة .. هو حذاء والسلام .. تستطيعين أن تلبسيه وتمشي به وتقطعي اربعمائة متر ، ثم تخلعيه لا شاكرة ولا مشكورة ، ثم تلبسي حذاءك الجميل ، وتقعدي به كما أنت الآن ... رشيقة أنيقة ... فاتنة الجيد ... ساحرة العينين ... وتروحي تهذري مع زوجتي التي تصب على رأسي الآن أحر اللعنات ... ومن يدري ؟ إذا لم تعجلي قبل أن يطغى بها الحنق والسخط ، فقد تلقي بحذائك في البركة ... إن النساء هكذا ... حذاؤك جميل ، ولـكن كل امرأة تعتقد أن حذاءها هي أجمل وأنفس .... هيا بنا ! »

فوقفت وهي تقول : « ولـكني لا أستطيع أن أمشي به .... واسع .... »

قلت : « لا تذمي زوجتي - أعني قدمها ، فانها جميلة ... ثم إن المشي في حذاء واسع خير من المشي في حذاء في جوفه مسمار .. تعالي بالله قبل أن يغرق في البركة »

فتوقفت وصوبت عينها الى قدميها وقالت : ولـكنه فضي وحذائي ذهبي ؟ »

قلت : قوس قزح ... تعالي ... أترانا في معرض أزياء هنا ؟ نحن في هذه الجنة المغروسة على جبال « الشوير » ولا أحد معنا ولا ثالث لنا إلا .... إلا الهوى ... كآدم وحواء ... وعلى ذكر ذلك أظن أن حواء كانت تلف ذراعهـا بذراع آدم إذ يسيران في الجنة »

* * *

وقالت زوجتي ونحن مقبلان عليها :

« لم أر مثلك أبدا في الدنيا ! »

قلت : « صدقت يا امرأة ! وأين تجدين في هذه الدنيا نظيري »

قالت محتجة : « تخطف حذائي وترمي لي هذا ال ... »

وأشارت بازدراء إلى حذاء الفتاة ، وكان ملقى على الأرض

فقلت : هس ! إن اللص منى ، أعني المسئولة عن الجريمة والمحرضة على ارتكابها »

فصاحت الفتاة وضربت بكفها على صدرها : « أنا ؟ »

ونظرت زوجتي الى قدمى الفتاة ثم نهضت وأقبلت عليها وقالت ، وهي تمد اليها يديها :

« أوه ! لم أكن أعرف ؟ ولكن كيف استطعت أن تمشي فيه ؟ إنه واسع ... ورجلك أصغر ... وأجمل أيضاً ! »

فالتفت إلى الفتاة وقلت : « أتسمعين يا هذه ؟ إنها تقر لرجلك بالمزية ! وجيدها ؟ أليس ساحراً يا امرأة ؟ ألست معذوراً إذا اشتهيت أن آكله ؟ وعيناها ؟ وهذا الفم العجيب الذى لا أدرى كيف يتسع للكلام ، وان كان قد اتسع جدا لذم حذائك يا امرأة ! »

فربعت الفتاة وصاحت : « أنا ذممته؟ حرام عليك ! »

فقلت : نعم ... جدا ... قلت انه واسع عظيم ، وانه ذكرك بالباخرة تايتانك ، وانه يسع جيشاً عرمرما من الأقدام الكبيرة الغليظة ، وانه ...

وكانت زوجتي تضحك ، أما الفتاة فقد خيل الىّ أنها ستسقط على الأرض

وقالت زوجتي : « فظيع ! ألا تقفل هذه البوابة ! لا تعبأى به يا حبيبتي ولا تلتفتي اليه ... انه هكذا دائماً ... والآن خذى هذا المسمار واحتفظى به للذكرى »

فقلت : « وأنا ؟ ما أجرى على التعب ؟ لقد قطعت كيلومترا فى الذهاب والاياب - قطعته عدوا ... وهذه الأحذية على راحتى الطاهرة .... »

فقالت زوجتي : « جزاؤك أن تقعد مع الأولاد ، ونذهب نحن نتمشى .... »

قلت : « هذا جزاء سنمار . لا بأس ! مجنون من يصنع معروفاً فى بنت من بنات حواء .... »

فقالت زوجتي : هذا رأيك ؟ إذن لن أدعوها إلى العشاء معنا ! »

فصحت : « لا لا لا . . . انما أعنى بنتا من بنات آدم »

فضحكت الفتاة ، ورمتني زوجتي بفستقة . . . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذى ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه ؛ الذى شغله البحث فى أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؛ الذى حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض ، وأن لكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؛ الذى علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط ؛ الذى كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الانسان والحيوان ؛ الرجل الذى كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر فى أجسام ضحاياها . البطل الذى نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده ، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده ، فأسر منها على هواه ، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً

المترجم

كان كوخ قد اعتزم أن يسيح فى الأرض ويضرب فى مجاهلها ضرباً ، ثم خاب ، وها هو ذا يبدأ سياحات غريبة فى مجاهل أشد غرابة . إنى أحياناً أقرن كوخ بلوفن هوك فأجد الأول أعجب وأغرب فى صيادته المكروب وأكثر انبهاماً ، وأجد كليهما على السواء عصاميا فى كسب العلم . كان كوخ رجلاً فقيراً يرتزق من صناعة الطب ، وكل ما عرف من العلم هو ما تضمنته مقررات الطب فى مدارسه ، وعلم الله ما كان فى هذه الدراسة شىء يعلم ممارسة التجارب ويدرب فى فن التجريب . ولم يكن لدى كوخ من أدوات التجربة غير ذلك المكرسكوب الذى أهدته إليه زوجه المخلصة إمى فى عيد ميلاده ، أما عدا هذا من الأدوات فكان عليه أن يحتال لتدبيره وتصميمه وأن يصنعه بيده من قطع الخشب وخيوط القنّب وشمع الأختام . وترك يوماً مكرسكوبه وفئرانه وجاء زوجه يخبرها فى تحمّس بالجديد المعجب الذى وجد ، فما

كان من السيدة الطيبة إلا أن قلصت قصبة أنفها فى اشمئزاز ظاهر وقالت له : ولكن يا روبرت ، إنك كريه الرائحة جداً

بعدئذ وجد طريقة أكيدة ينقل بها مرض الجمرة إلى الفئران . لم يكن لديه مِحْقن يحقن به الدم القاتل فيها فى سهولة ، ولكن بعد خيبات ولعنات وخسارة عدد طيب من الفئران السليمة ، اهتدى إلى أن يأخذ فلقاً من الخشب فينظفها جيداً ثم يسخنها فى الفرن ليقتل ما قد يكون عليها من المكروبات العادية ، ثم يغمسها فى قطرات من دم الأغنام التى قتلتها الجمرة ، ثم يدخل أطرافها بما عليها من الدم فى جرح جَرَحه بمشرط نظيف فى أذناب تلك الفئران . ولا تسألنى كيف قبض عليها فسكّنها وهى تترعّص وتتلوى بين يديه . وكان يضع هذه الفئران فى أقفاص وحدها ثم يغسل يديه ، ويخرج ليعود طفلاً مريضاً على سبيل تخليص الذمة ، ورأسه لا يزال مليئاً بالأشتات من كل شيء : « أيموت هذا الفأر بداء الجمرة . . . . . نعم يا مدام اشميت ، يستطيع ابنك أن يعود إلى المدرسة فى الأسبوع القادم ..... أرجو ألا يكون هذا الدم الملوث بالجمرة دخل إصبعى من الجرح الذى فيه . . . » . هكذا كانت حياة كوخ موزعة بين بحثه وطبه

وأصبح الصباح ، وجاء كوخ إلى المعمل البيتى الذى صنعه بيده ، فوجد الفأر ملقى على ظهره وأرجله فى السماء ، وقد تصلب جسمه وانتفش شعره ووقف على جلده وكان بالأمس منبسطاً على ظهره فى ملاسة ونعومة . وبعد أن كان أبيض صار أزرق رصاصياً ، فأحمى كوخ سكاكينه فى النار ، وربط الفأر المسكين على شريحة من الخشب ، وشق بطنه فكشف عن رئتيه وكبده ، وشرّحه حتى وصل إلى كل ركن من جسمه وحدق فيه : « نعم . نعم . إن باطنه يشبه باطن الشاة المجمورة . . . . وهذا طحاله ، ما أسوده وما أضخمه !... إنه يكاد يملأ كل بطنه .... » وأسرع كوخ فشق الطحال المتضخم فجرى منه الدم الأسود ، فأخذ منه قطرات ووضعها تحت مجهره ، وتمتم أخيراً لنفسه : « ها هى العِصىّ وها هى الخيوط بعينها . . . . إنها تكاد تملأ دم الفأر كما ملأت دم الشاة » وفرح كوخ فرحاً شديداً لأنه أيقن أنه بذلك استطاع أن ينقل إلى الفئران أمراض الشياه والأبقار والانسان ، والفئران قليلة الثمن ، صغيرة فى اليد ، سهل تناولها عند التجريب . وفى الشهر الذى جاء من بعد ذلك لم يكن لكوخ عمل إلا حقن فأر حى من بعد فأر ميت . يأخذ قطرة الدم من طحال الفأر الميت فيحقنها فى ذيل فأر حى صحيح . ثم يصبح الصباح فيجد هذا الفأر قد مات من داء الجمرة ، فيمتحن دمه فيجد به الملايين من تلك الخيوط المتخالطة والعصى المتكاثرة يجدها ساكنة لا حراك بها ، صغيرة متضائلة لا يزيد طولها على جزء من ألفين من الملليمتر الواحد

وأخذ كوخ يتفكر : « هذه العصى لا حركة فيها ، ولكن مع هذا لا بد ان تكون حية . إن قطرة الدم التى أحقنها فى الفأر ليس بها غير مئات من هذه العصى ، ولكنها لا تلبث فى دمه أربعاً وعشرين ساعة حتى تكون قد تكاثرت فبلغت البلايين ، ويكون الفأر قد مرض بها ومات .... ولكن كيف السبيل إلى رؤيتها وهى تتكاثر ؟ كيف السبيل وجلد الفأر لا يَشُفّ عما تحته ؟ !

وأخذ هذا السؤال يرن فى أذنه وهو يجس نبض مرضاه وينظر فى ألسنتهم . فاذا جاء المساء أكل عشاءه سريعاً ، وغمغم لزوجته تحية المساء لتنام ، وذهب هو إلى تلك الغرفة الصغيرة قد ملأتها رائحة الفيران والمطهّرات الكيميائية وأغلقها على نفسه ، ثم أخذ يفكر كيف يكثّر تلك العصى خارج جسم الفأر . وكان كوخ فى هذا الوقت لا يدرى شيئاً عن أحساء الخمائر التى صنعها بستور ولا عن قباباته ؛ أو إن هو درى ، فالنزر القليل منها ؛ لذلك كانت تجاربه لتكثير تلك العصى تجاربَ المبتكر الأول ، فيها التواء وفيها تعقد ؛ كانت كتجارب الرجل الأول يريد أن يصطنع لنفسه ناراً

قال كوخ : « سأحاول أن أكثر هذه الخيوط فى سائل أقرب ما يكون إلى سوائل الجسم ، سائل مصنوع من مادة الأجسام نفسها » . وأتى بعين ثور وأخرج منها بعض مائها ، ووضع فى هذا الماء فُتَيْتة كسن الدبوس من طحال فأر قتله المرض . ثم قال : « هذا غذاء لا شك مستطاب لهذه الخيوط ، ولكن لعلها تتطلب غير الغذاء الطيب حرارة أجسام الفئران كذلك » وصنع بيديه مِدْفئاً غير جميل وسخنه بمصباح زيت ، ثم وضع فى هذا المدفأ المرتجَل شريحتين متلاصقتين من الزجاج الرقيق كان قد وضع بينهما سائل عين الثور وفُتَيْتة الطحال . وذهب لينام . ولكنه لم ينم . ففى منتصف الليل قام ليخفض فتيلة المصباح بمدفئه ، وكان قد ملأه منها الدخان . وبدل أن يعود

فينام، أخذ ينظر العصىّ بين شريحتى الزجاج مرة بعد أخرى. وخال أحياناً أنه رآها تتكاثر، ولكنه لم يكن على يقين من ذلك، لأن مكروبات أخرى من التى تسبح وتثب وجدت سبيلها بين الشريحتين على عادتها، وزادت فى تكاثرها على عصىّ صاحبنا الدقيقة المهلكة وطغت عليها

قال كوخ لنفسه: « هذا عمل غير نافع! هذه العصىّ لابد من تكثيرها هى وحدها خالصة نقية من كل مكروب آخر » وأخذ يفكر فى الوصول الى هذا حتى أكدّه الفكر. وأخذ يحتال ويتدبّر حتى صار الاحتيال همّا والتدبّر غمّا

وذات يوم تراءت له طريقة يروض بها عصيّه وهو يرقبها. طريقةٌ غايةٌ فى البساطة غاية فى السهولة لا تحتاج للفكر الكثير قال كوخ: « سأضع تلك العصى فى قطرة عالقة، فلا يصلها من المكروبات الغريبة شيء ». ثم جاء بقطعة صغيرة رقيقة مفرطحة من الزجاج الرائق، وسخنها حتى يقتل ما قد يكون عليها من المكروب، ثم وضع عليها قطرة من سائل عين ثور سليم قضى عليه الجزّار حديثا، ثم غمس فى هذه القطرة قطعة غاية فى الصغر من طحال فأر مات من داء الجمرة حديثاً. وبعد ذلك جاء بشريحة كبيرة غليظة مستطيلة من الزجاج، كان قد نقر فى وسطها نقرة عميقة واسعة، ودهن سطحها مما يلى حافة النقرة بشيء من الفزلين vaselins، ثم قلب هذه الشريحة الكبيرة السميكة على الأخرى الصغيرة الرقيقة التى عليها سائل العين وطحال الفأر بحيث تقع النقرة فوق القطرة ولا تمسها، فالتصقت الزجاجتان بالفزلين فكانتا كقطعة واحدة. ثم عاد فقلبهما معا فى سرعة وحذق فصارت قطعة الزجاج الصغرى هى العليا وتعلّقت منها قطرة السائل بما فيها من الطحال وعصيّه الكثيرة، وقد انحبست فى تلك النقرة انحباساً كاملا فلا تستطيع المكروبات الأخرى الدخول اليها. تلك هى « قطرته العالقة ». ولعلّ كوخا لم يقدّر كل التقدير هذه الطريقة الجديدة، ولم يدرك كل الادراك مكانها من تاريخ بحث المكروب ومحاربة الانسان أسباب الموت. وسواء قدّرها أو فاته تقديرها فقد كانت ساعة من أخطر الساعات تلك التى أخطرت هذه الفكرة على باله، ساعة لا يَعْدلها إلا تلك التى رأى فيها لوفن هوك أحياءه الصغيرة فى ماء المطر أول مرة

ووضع كوخ « قطرته العالقة » تحت مكرسكوبه وجرّ كرسيّه وجلس وهو مضطرب ينظر ما تكشف له العدسة وهو يقول لنفسه: « لا يستطيع شيءٌ أن يدخل إلى تلك القطرة، وهى ليس بها إلا العصىّ، فلأرقبها علّى أعلم من أمر نموها شيئاً، فكشفت له العدسة عن مجال أغبر لم يجد فيه غير قطع الطحال وقد نسلت وتقطّعت وتراءت ضخمة تحت المجهر، وغير عصية هنا وعصـية هناك طافية بين نسائل الطحال؛ وظل ينظر ساعتين، وينظر فى الساعة الواحدة خمسين دقيقة، ولكن لم يحدث شيء. وأخيراً بدأت الرواية التى اصطبر لمرآها طويلة، وأخذت صورة المجال تحت بصره تتغير وتتبدل كأنما امتدت لها بالسحر يد ساحر، واهتز صاحبنا واضطرب، وجرت فى ظهره رعدة بعد أخرى كلما اختلفت صورة المجال تحت عينه. إن العصىّ الطافية القليلة أخذت فملا فى التكاثر! فى هذا المكان توجد الآن اثنتان حيث كانت واحدة. وتلك عُصَيّة أخرى تطول بطيئة ولكنها تطول كثيرا، وهى فى استطالتها تنثنى كالأفعى وتنال أطراف المجال. ولم تمض ساعتان حتى كثرت تلك العصىّ كثرة غطّت على قطع الطحال فاختفت وبلغت أعدادها الملايين فأصبحت فى اختلاطها وتداخلها وتلبّدها ككرة من غزْل، انحلّ فاختلط فلا رجاء فى تسليكه إلا أنه غزل حىّ، غزل صامت قاتل

وتنفس كوخ الصُّعداء: « الآن أعلم أن هذه العصىّ حية والآن أعلم أنها تتكاثر بالملايين فى فئرانى الصغيرة المسكينة، وفى الشياه، وفى الأبقار. فالعُصيّة الواحدة (البَشِلّة الواحدة) أصغر من الثور بملايين المرات، فاذا هى دخلت الثور نمت وتمددت وصارت ألوفا تنسل ألوفا تنتشر فى نواحى الحيوان الكبير فتتحشى بها رئته ويكتظ بها مخه وينسدّ بها دمه، لا عن ثأر لها عنده، أو كراهة لها فيه

أصبح كوخ لا يعى الزمن، ولا يهتم لواجباته، ولا يصغى لمرضاه إذ ينتظرونه طويلا فيملون فيشكون. فكل هذه الأمور فقدت حقيقتها من نفسه، وأصبح رأس كوخ لا يعى إلا صوراً مخيفة من خيوط الجمرة وهى فى اختلافها واختلاطها. وأخذ يعيد تلك التجربة التى يخلق فيها من البشلّة الواحدة ألوف الألوف من البشلات. فأعادها ثمانى مرات فى ثمانية أيام متتابعات.

فبدأ بأن أخذ غمسةً يسيرة جداً من « قطرته العالقة » وهى تعج بتلك العُصيّات فزرعها فى قطرات نقية جاء بها من سائل عين ثور سليم . فوجد بكل قطرة من هذه ألوفاً من هذه العصيات . ثم أخذ من هذه القطرات الحادثة ليزرع فى قطرات جديدة نقية من عين ثور . وهلم جرا حتى استتم له من ذلك ثمانى زرعات

قال كوخ : « لقد نسّلتُ هذه البَشِيلات ثمانى ذُرّيات متعاقبات ، كلها خالصة من كل مكروب غريب ، خالصةً من طحال الفأر الذى اختلطت به أولا . وهذه البشلّات فى هذه الذرية الأخيرة هى أحفاد البشِلّات الأولى التى قتلت الفأر . فهل يا ترى تقتل هـذه البشلات الأخيرة الفأر والشاة كما كانت تفعل أمهاتها الأولى ؟ ... ... أفتنمو يا ترى هذه البشلات فى الفئران وفى الشياه إذا أنا حقنتها فيها ؟ أهى يا ترى سبب الجمرة الذى لا مرية فيه ؟ »

وأخذ كوخ قُطَيرةً يسيرة من « قطرته العالقة » ـ وكانت تتراءى للعين العادية عكرة بما تعج به من المكروب ـ ونشرها على فِلقة من الخشب صغيرة ، ثم غرس هـذه الفلقة تحت جلد فأر صحيح ونجا هو فلم يمسسه سوء . نجّاه منه تلك العناية الالـٰهية التى تقوم الى جانب البحاث الجريئين المتهورين وتحرسهم وتدفع عنهم بمشيئة الله شر ما هم فيه

وفى اليوم التالى كان كوخ قائما على هذا المخلوق الصغير وقد دبّسه الى لوحة تشريحه ، وقد انحنى عليه عن قصر فى البصر ليراه من قريب . ثم أخذ يحمى مشارطه فى النار وقد ملأه الرجاء . ولم تمض دقائق ثلاث حتى كان جالسا الى مكرسكوبه ينظر منه قطعةً صغيرة من طحال الفأر قد وضعها بين رقيقتين من الزجاج ثم تمتم لنفسه : « لقد تحقق المأمول ، فها هى الخيوط ، ها هى العُصيّات وتلك البشلّات الصغيرة التى فى قطرتى العالقة ، تلك البشلات التى أوجدتها بالتنسيل سلالاتٍ متعاقبة ثمان ، لها من القدرة على القتل مقدار ما لتلك التى يأخذها الآخذ مباشرة من طحال الشاة النافقة من داء الجمرة »

رأى كوخ هذه البَشِلات أول ما رأى فى دم تلك البقرة التى نفقت من داء الجمرة زمانا مضى ، يوم كان مجهره جديداً ويده تضطرب عليـه من قلة التجربة والمران ، واليوم يرى نفس هذا المـكروب فى دم الفأر المسكين ، وهو هو نفسه المـكروب الذى ربّاه فى سلسلة طويلة من الفئران ، وفى عدد كثير متعاقب من قطراته العالقة

ها هو ذا كوخ يُثبت أول مثبت أن النوع الواحد من بعض المـكروب يسبب نوعا واحداً من الأمراض ، وأن هذه المخلوقات الصغيرة قد تمتدى فى حقارتها على مخلوقات كبيرة عظيمة فى ضخامتها فتوردها موارد الموت سريعا . سبق كوخ كل الرجال فى إثبات هذا ، وسبق فيه بستور كذلك ، وهو الذى على سننه جرى وبهديه اهتدى . رمى كوخ بخيطه وصنارته ليصطاد تلك الأسماك الضئيـلة فى المحيط الأعظم وهو واسع بهيم . وتقفّاها وتجسس بهـا وهو لا يعلم من صفاتها شيئاً ، ولا من عاداتها شيئاً ، وهو لا يدرى من جرأتها وشراستها شيئاً وهو لا يعرف متى ولا بأى سهولة تثب عليه من مراصدها ومخابئها ؛ والشىء إذا دق هذه الدقة فكل مكان مخبأ وكل طريق مرصد

يتبع

أحمد زكى

أندلسيات :

٢ – قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

يتشابه الفتح بن خاقان وأبو الحسن بن بسام في أنهما كانا متعاصرين ، وفي أنهما تصديا للكلام على أدباء الأندلس من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء والملوك ممن عاصرهما ومن كان قبل عصرهما ، وفي أنهما كانا يرسلان الى معاصريهما يعرفانهم عزمهما ويسألانهم إنفاذ شيء من منثورهم ومنظومهم ليذكراه في كتابيهما : الأول في قلائد العقيان ومطمح الأنفس ، والثاني في الذخيرة . قال العماد الكاتب صاحب خريدة القصر : حدثني الصاحب الكبير العالم جمال الدين بن أكرم قال : لما عزم ابن خاقان على تصنيف كتاب قلائد العقيان جعل يرسل الى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة ويعرفه عزمه ويسأله إنفاذ شيء من شعره ونظمه ونثره ليذكره في كتابه . وكانوا يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفذون اليه ذلك وصرر الدنانير ، فكل من أرضته صلته ، أحسن في كتابه وصفه وصفته . وكل من تغافل عن بره هجاه وثلبه . وكان ممن تصدى له وأرسل اليه أبو بكر بن باجه المعروف بابن الصائغ ، وكان وزير ابن فلويت صاحب المرية . وهو – أي ابن الصائغ – أحد الأعيان وأركان العلم والبيان . شديد العناية بعلم الأوائل ، مستول على أهل الأشعار والرسائل ، وكانوا يشبهونه في المغرب بابن سينا بالمشرق ، وله تصانيف في المنطق وغيره ، فلما وصلته رسالته تهاون بها ولم يعرها طرفه ، ولا لوى نحوها عطفه ، وذكر ابن خاقان بسوء بلغه ، فجعله ختم كتابه ، وصيّره مقطع خطابه . وقال : هو رمد جفن الدين الخ وبلغ ذلك ابن الصائغ ، فأنفذ له مالاً استكفّه به واستصلحه ؛ وصنف ابن خاقان كتابا آخر سمّاه مطمح الأنفس وصله بقلائد العقيان افتتحه بذكر ابن الصائغ وأثنى عليه فيه ثناء جميلاً الخ وكذلك نرجىء الكلام على ما كان بين ابن خاقان وبين الفيلسوف ابن باجه أو ابن الصائغ إلى ما بعد الفراغ من الموازنة بين ابن خاقان وبين ابن بسام ... وقد ظهر لك مما أوردناه هنا من كلام العماد أن ابن خاقان كان يرسل الى أعيان الأندلس ليرسلوا اليه آثارهم ، وكذلك كان يفعل ابن بسام صاحب الذخيرة ...

قال المراكشي صاحب المعجب : فمما أختار له – أي لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال أحد كتاب الأندلس البلغاء النابهين – فصول من رسالة كتب بها مراجعا لبعض إخوانه عن رسالة وردت عليه منه يستدعي فيها منه شيئاً من كلامه ، وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة ... وهذا هو محل الشاهد ... ودونك الآن فصولا من هذه الرسالة – أي رسالة ابن أبي الخصال الى ابن بسام فانها من طرف الأندلسيين . قال : وصل من السيّد المسترقّ ، والمالك المستحق ، وصل الله إنعامه لديه ، كما قصر الفضل ، كُتابه البليغ ، واستدراجه المُريغ (1) . فلولا أن يصلد زند اقتداحه (2) ، ويرقد طرف افتتاحه ، وتقبض يد انبساطه ، وتغبن صفقة اغتباطه ، للزمت معه قدري ، وصنت سريرة صدري . ولكنه بنفثات سحره يُسمع الصمّ ، ويستنزل العُصْم ، ويقتاد الصعب فيصحب ، ويستدر الصخور فتحاب ، ولما خأني ابتداؤه ، وقرع مسمعي نداؤه ، . فزعت الى الفكر ، وخفق القلب بين الأمن والحِذْر ، فطاردت من الفِقَر أوابد قَفْر ، وشوارد عُفْر ، تُغبرُ في وجه سائقها ، (3) ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقها ، فعلمت أنها الاهابة والمهابة ، والاصابة والاستراية ، حتى أيأستني الخواطر ، وأخلفتني المواطر ، إلا زبرجا يعقب جوادا ، (4) وبهرجا لا يحتمل انتقادا . وأنّى لمثلي والقريحة مزجاة (5) ، والبضاعة مزجاة (6) ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكعاب (7) . ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلي فيه قِدْح ، ولا تحصّل لي في سوقه ربح ... وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه النُتف الأخيرة . وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ، وأنا أخشى القَدْح في اختيارك ، والاخلال بمختارك ... الى أن يقول : وعذرا أعزك الله فاني خططت ما خططته والنوم مغازل ، والقرّ منازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول صولة الحجاج ، فطورا تسدّده سنانا ، وتارة تحركه لسانا ، وآونة

---

(1) يريد المخادع (2) صلد الزند يصلد بكسر اللام صوت ولم يخرج نارا (3) غبر في وجهه سبقه (4) يريد السحاب الرقيق لا ماء فيه (5) من الأرجاء وهو التأخير (6) قليلة (7) ظرف وخفة روح

تطويه حبابه ، وأخرى تنشره ذؤابه ، وتقيمه إبرة لهب ، وتعطفه بُرة ذهب . أو حمة عقرب . وتقوسه حاجبَ فتاةْ ، ذات غمزات ، وتسلطه على سليطه ، وتزيله عن خليطه ، وتخلعه نجما ، وتمده رجما ، وتَسلّ رُوحه من ذُبالِه ، وتعيده إلى حاله ، وربما نصبته أذن جواد ، ومسخته حدق جراد . ومَمْشَقَتْه حروف بَرْق ، بِكفّ وَدْق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلا حظّ منه للعين ، ولا هداية فى الطرس لليدين ، والليل زنجيّ الأديم ، تبرى النجوم ، قد جلَّلنا ساجُه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال للحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت فيه الزرقاء لا كتحلت ، أو خُضبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صافح خيشومُه ذَنبه ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه . والتَوى التواء الحُباب ، واستدار استدارة الحَباب (١) ، وجَلَدَه الجليد ، وصمد أنفاسه الصعيد ، فَحِياه مُباح ، ولا هرير ولا نباح ، والنار كالرحيق ، أو كالصديق ، كلاهما عنقاءُ مُغْرب ، أو نجم مُغَرّب ، استوى الفصل ، ولك فى الأغضاء الفضل ، والسلام ...

***

وقد حدثنا الفتح فى قلائده أنه هو الآخر كتب إلى أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال مستدعياً لمن كلامه ما يثبته فى الديوان ـ يريد قلائد العقيان ـ وينبته فيه زهر بستان ، فكتب اليه ابن أبى الخصال رقعة يقول فيها : الحذر ـ أعزك الله ـ يؤتى من الثقة ، والحبيب يؤذى من المِقِة ؛ وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلمحة ، وأقنع من ثنائك وهو المسك بنفحة ، فما زلت تعرضني للامتحان ، وتطالبني بالبرهان ، وتأخذني بالبيان ، وأنا بنفسى أعلم ، وعلى مقدارى أحوط وأحزم ، والمُعيدى يُسمع به لا أن يُرى ، وإن وردت أخباره تترى فشخصه مقتحم مزدرى ، ولا سيما من لا يجلى ناطقا ، ولا يبرز سابقاً ، فتركه والظنون ترجمه ، والقال والقيل يقسمه ، والأوهام تحله وتحرمه ، وتخفيه وتخترمه ، أولى به من كشف القناع ، والتخلف عن منزله الامتناع ، وفى الوقت من فرسان ، هذا الشان ، وأذمار هذا المضمار ، وقطان هذه المناهل ، وهداة تلك المجاهل ، من تحسد فقره الكواكب ، ويترجل اليه منها الراكب ، فأما الأزاهر فلقاة فى رباها ، ولو حلت عن المسك حباها ، وصيغت من الشمس حلاها ، فهى من الوجد تنظر بكل عين شكرى ، لا نكرى ، وإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبثوثة ، وبدائعهم منثوثة ، وخواطرهم على محاسن الكلام مبعوثة ، فما غادرت متردما ، ولا استبقت لمتأخر متقدماً ، فعندها يقف الاختيار ، وبها يقع المختار ، وأنا أنزه ديوانه النزيه ، وتوجيهه الوجيه ، عن سقط من المتاع ، قليل الامتاع ، ثقيل روح السرد ، مهلك صر البرد ، إلا أن يعود به جماله ، ويحرس نقصه كماله ، وهبه أعزه الله قد استسهل استلحاقه ، وطامن له أخلاقه ، أترانى أعطى الكاشحين فى اتباعه يدا ، وأترك عقلى لهم سدى ، وما إخالك ترضاها لى مع الود خطة خسف ، ومهواة حتف ، لا يستقل غبينها ولا يبل طعينها . . . . الخ الخ فهى رسالة طويلة وإن كانت على طولها ممتعة جميلة . . . . .

موازنة ومفاضلة

والآن فلنعرض للموازنة بين الفتح وبين ابن بسام مادام بينهما هذا التشابه الذى ذكرنا . . . . قال الحجارى صاحب المسهب : وهو ـ الفتح ـ وأبو الحسن بن بسام الشنتمرى مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلما مفيداً ، واطنابا فى الأخبار ، وامتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتمشقاً بالأنفس ... هذا هو كل ما عثرنا عليه للمتقدمين من مفاضلة بين هذين الفاضلين ، ونحن فنقول : إن المتفقد لكتاب الذخيرة لابن بسام ، وكتابى القلائد والمطمح لابن خاقان ، يتبين له أن الفتح فى الحق أضخم عبارة ، وأجزل أسلوباً ، وأقدر على التنميق والتزويق والتهويل ، ويغلب ذلك على أكثر تراجمه ؛ وقد يتعمل حتى يرى أثر التقعر محساً ملموسا ، وهو مع هذه الجزالة والضخامة ، أقل تقييدا وعلما مفيداً . دع تقصيره فى تراجمه من ناحية التحقيق التاريخى فلا هو يذكر اسم المترجم كاملا ولا نسبه ولا بلده ومنشأه ، ولا تاريخ مولده ووفاته ، فكأنه يترجم مترجميه لناس يعرفونهم كل المعرفة ، وانما الذى ينقصهم هو أن يلموا ببعض آثار أولئك المترجمين المعروفين ، وأن يقفوا على بلاغة الفتح

---

(١) الحباب الأولى بضم الحاء الحية والثانية بفتحها الطل الذى يصبح على النبات وحباب الماء نفاخاته وفقاقيعه التى تطفو عليه

وبراعتـه ، وحذقه ومهارته ، وكيف يرفع من يبنى أن يرفعه ويخفض من يريد أن يضعه ، ومن هنا لا تعد كتب الفتح كتب تراجم بالمعنى المعروف ، وانما هى بكتب المختارات أشبه . أما ابن بسام صاحب الذخيرة فهو وإن كان أكثر تقييداً وعلما مفيدا ، واطناباً فى الأخبار ، وامتاعا – من هذه الناحية – للأسماع والأبصار – كما يقول الحجارى – وإن كان أقل تزويقا وتهويلا وإن كان أعف لسانا ، وأنزه بيـانا ، إلا أنه هو الآخر يقارب الفتح فى اغفاله تاريخ من ترجم له مولدا ووفاة ونسبا وبلدا ومنشأ ، ومَثَل الاثنين فى ذلك مثل الثعالبى صاحب يتيمة الدهر ، ومثل الثلاثة العماد الكاتب صاحب خريدة القصر وجريدة أهل العصر والباخرزى صاحب دميـة العصر وعصرة أهل العصر ، كل أولئك يجتزئون ببلاغاتهم عن تحقيقاتهم ، فكانت كتبهم لذلك نوعا غريبا بين أسفار الأدب فى لغـة العرب ، فلا هى بالمختارات المحضة ولا هى بالتراجم الوافية ، ولا هى من قبيل العقد والكامل وما اليهما . ولعل أول من ابتكر هذا النوع هو الثعالبى

« للقصة بقية » عبد الرحمن البرقوقى

٥ – معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراقى

أسباب الحرب

لقد ظهر لنا من المباحث السابقة أن الطليان اعتبروا الحبشة مستعمرة طليانية ، وحملوا الدول الأوربية على الاعتراف بذلك بعد نشرهم المعاهدة وذيولها ، واستفادوا من حاجة البريطانيين اليهم فتقدموا إلى كاسيلا واستولوا قبل ذلك على عدوى

ومع أن منليك كان يتظاهر بعدائهم عنـــد منحه امتياز السكة الحـديدية للفرنسيين وإذابته العملة النقدية التى ضربها الطليان فى بلادهم لم يتمكن الطليان من التضييق عليه لأنهم كانوا مكلفين بمساعدة البريطانيين فى قتالهم المهـدى ، ولم يرض البريطانيون بأن يترك الطليان جبهة السودان ويتقدموا بقواتهم على الأحباش

والحقيقة أن السياسة البريطانية من حيث أهـدافها العامة لم ترغب ألبتة فى توسع نفوذ الطليان فى الحبشة وتوطيد كلمتهم فيها لأنها كانت ترمى إلى احتلال مصر والسودان والمحافظة عليهما بترك حراسة جبال الحبشة بيد أهلها الأحباش

أما النجاشى منليك فكان يرمى إلى توحيد المملكة وتقويتها ثم اعلان استقلالها للعالم . ولا شـك فى أن رغبة الطليان فى توطيد نفوذهم فى الحبشة وسعى نجاشى الحبشة لاستقلال البلاد أديا حتما إلى الاختلاف بين ايطاليا والحبشة برغم المعاهدة وذيولها

وسترى كيف حدث هذا الاختلاف فادى إلى الحرب بينهما . والحقيقة هى أن بريطانيا لم تكد تقض على حركة المهدى فتبقى ايطاليا حرة فى العمل إلا وشرع الطليان بحشد قواتهم فى مستعمرة أريترة للتوغل فى بلاد الحبشة

ولما تأكد منليك من قدرة جيشه البالغ عدده زهاء ١٤٥٠٠٠ أعلن استقلال الحبشة الى جميع الدول . ولمجاملة ايطاليا طلبت ألمانيا وفرنسا من النجاشى أن يرسل هذا البـلاغ بواسطة ايطاليا

فبلغ منليك ملك ايطاليا أن المادة السابعة عشرة من معاهدة أوكسالى لا ترغمه على توسـيط ايطاليا فى جميع علاقاته بالدول الأوربية ، والنص الحبشى من المعاهدة صريح فى هذا الباب ، فهو يخول للنجاشى حق طلب التوسـيط إذا أراد ذلك . لذلك رجا من ملك ايطاليا أن يخبر الدول الأوربية بذلك لـكى لا يحدث سوء تفاهم فى المستقبل

والواقع أن المعاهدة كانت مكتوبة باللغة الأمحرية والمـادة السابعة عشرة منها تنص على ما يلى : « جلالة امبراطور الحبشة مختار فى استخدام الوكلاء الطليان » . أما الطليان فلما ترجموا المعاهدة إلى لغتهم وضعوا كلمة « الاجبار » بدلا من « الاختيار » فجاء النص الطليانى كما يلى : « جـلالة امبراطور الحبشة مكلف باستخدام الوكلاء الطليان »

فانتبه الساسة الطليان الى خطئهم ، فلما تيقنوا أن القلم لم يجد نفعاً فى الحصول على رغباتهم فى بلاد الحبشـة قرروا استخدام السيف ، مع أن منليك لم يرغب فى الحرب فى تثبيت عـلاقاته بايطاليا . فتظاهر الفرنسيون بالولاء للطليان ، بينما كانوا فى الخفاء يؤيدون النجاشى ، لأن توسع نفوذ الطليان فى بلاد الحبشة يخالف مرماهم . وكان الحاكم الفرنسى فى المستعمرة الصومالية همزة الوصل

بين الحكومة الفرنسية والحكومة الحبشية ، أما الحكومة الروسية فلم تعترف بالمعاهدة وكانت تساعد الحبشة بارسال الضباط وأصحاب المهن والرهبان والسلاح اليهم

فرأى رئيس الحكومة الطليانية « كريسبي » إرسال رجل محنك الى بلاط النجاشي عسى أن يقنعه ويزيل الخلاف . فأرسل الكونت « انطونلي » إلا أن هذا لم يتمكن (رغم ذلاقة لسانه ووعيده) من اقناع منليك الذى كان جوابه للوزير الطلياني ما يلي :

« مادام قد حدث غلط فى نص المادة السابعة عشرة فالأولى أن نلغيها تماما ، ولنتذاكر من جديد على نص المعاهدة ؛ ثم إن بلادى تحتاج إلى منفذ إلى البحر فلنقرر هذا أيضا »

ولم يغير منليك رأيه ولم يحد عن فكره . فكان فى جميع مذاكراته مع الوزير المفوض يؤيد هذا الطلب عينه . وأخيراً بلغ الحكومة أن المادة السابعة عشرة من المعاهدة ملغاة . وفى الوقت عينه أعاد الأربعة ملايين فرنك اليها . وكان من نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بين ايطاليا والحبشة وانتهت الى الحرب

ساحة الحركات

تقرب سلسلة الجبال من مصوع وتسيطر على سهلها الضيق وفى امتدادها الى الشمال تكون موازية للشاطىء . أما فى امتدادها إلى الجنوب فتبعد عنه ، وتتكون منها صحراء الدنا كل التى تشح المياه فيها ، وهذه الصحراء وعرة ذات مفازات ووديان وروابٍ

وهذه السلسلة ذاتها تتصل بالسلاسل الأخرى التى تتكون منها معاقل الحبشة الداخلية

جرت الحركات على طرفى الحدود فى جنوبى « أسمرة » عاصمة أريترة بعد مصوع . والأرض فى هذه المنطقة جبلية وهى واقعة على سفوح السلسلة الأولى التى تؤلف الضلع الغربى للمثلث ، والارتفاعات فيها تتفاوت بين ١٥٠٠ و٢٥٠٠ متر . والانحدارات فى السفوح الشرقية على ما نعلم مائلة شديدة الوعورة ، وتسلقها صعب ، والأرض متقطعة بوديان وفيها وهاد ومضايق . والروابى يعلو بعضها بعضاً ، والكثير منها مكسو بالغابات والأحراج . أما الطرق فمسالك وعرة يصعب على الحيوانات المحملة السير فيها

والمنطقة بأجمعها تصلح للدفاع أكثر منها للهجوم . ولا تمكن الحركة فيها بقوات كبيرة ما لم يكن السير فيها بأرتال مختلفة متباعدة تفرقها الودن والمضايق عن بعضها فتصعب المواصلة بينها . وفضلا عن ذلك فالمياه فيها شحيحة ومواد الاعاشة قليلة ، الأمر الذى يقتضى تجهيز القوات بوسائل النقل الكثيرة والسير فيها يقتضى بطبيعة الحال اتخاذ تدابير الحماية . لذلك لا يجوز أبداً تطويل الأرتال لأنها تمسى أهدافا ملائمة للمباغتة . والخلاصة أنها من أفضل الأراضى الصالحة للحروب الصغرى بالكمين والمباغتة فهى من هذه الوجهة تفيد الأحباش الذين يعرفونها حق المعرفة ويعلمون بنجدها وغورها فضلا عن تعودهم على اقليمها

والطرق التى تربط مستعمرة اريترة بهذه الساحة تبدأ من ساحل البحر وتمتد الى الجنوب الغربى فالى الجنوب ، منها طريق شمالى يبدأ من مصوع ويمر بأسمرة بعد أن يتسلق الجبال ويدخل الهضبة . وارتفاع اسمرة ٢٣٧٢ متراً . وقبل أن يقطع نهر مارب الفاصل للحدود يمر بقرية «غوندت» ثم يصل الى عدوة وارتفاعها ١٩٦٥ مترا وهى واقعة بالقرب من أكسوم والى شرقيها

والطريق الثانى يبدأ من زولا على خليج عدولى . وبعد أن يمر بقريتى « حلبى » و « كواتيت » يقطع الحدود الى جنوبى سنافة ويصل الى قلعة ادجرات وهى من المراكز الحبشية الخطيرة ، فيتوجه الطريق بعد ذلك الى الجنوب ويمر بقلعة « مكا » الى أن يصل الى « هرر » ويجرى فى هذه الساحة تابعا نهر عطبرة وهما مارب وتكاسه

ومن جملة الأهداف التى كان يتوخاها الطليان فى حركاتهم استمالة الرؤوس الى جانبهم واثارة الحروب الداخلية فى الحبشة لكى يسهل عليهم التغلب على العدو

فكانوا على اتصال برأس مقاطعة تيجرى ، وبعد هذه المقاطعة تأتى مقاطعة أمحرة الداخلية ، وفى جنوبيها مقاطعة شوعا المختصة بالنجاشى ، وهى خلف مقاطعة غوجام الداخلية ، وفى جنوبى هذه المقاطعات أرض الغالا فى منتهى البلاد الحبشية

فيتضح من ذلك أن الحركة يجب أن تجرى بمراحل لاحتلال المقاطعات على التوالى ، وهذه المقاطعات جميعاً وعرة منيعة

قوات الفريقين — الجيش الحبشى

استخدم الطليان رئيساً لتجسس أحوال الحبشة وبالنظر إلى المعلومات التى توصل إليها هذا الضابط من أن أنفس مقاطعات تيجرى وأمحرة وغوجام زهاء ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة . أما أنفس

مقاطعة شوعا وحدها فتبلغ ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة وهذا مما يجعل لهذه المقاطعة مركزاً خطيراً يتجلى بحكمها على المقاطعات الأخرى

ولما لم يكن للحبشة جيش منظم فمن البديهى أن تقدر القوات بالرجال المسلحين الذين تجهزهم المقاطعات المذكورة وعلى هـذا الأساس تبلغ قوة الجيش ما يلى :

رجل	
٢٠,٠٠٠	جيش تيجرى
٣٥,٠٠٠	جيش امحرة
٢٠,٠٠٠	جيش غوجام
٧٠,٠٠٠	جيش شوعا
١٤٥,٠٠٠	المجموع

ونقصد بالجيش القوة الجاهزة التى يستطيع أن يستخدمها الرأس أو ملك المقاطعة ، متى شاء بمعنى أنها مستعدة للعمل فى كل وقت . أما عند الاقتضاء فيمكن إخراج قوات أخرى بكل سهولة لأن الأحباش جميعاً جنود بالطبع لا فرق بين شابهم وشيخهم .

أضف إلى ذلك مقاطعة الغالا وعاصمتها هرر التى تبلغ نفوسها زهاء ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة ومع أنها بعيدة عن ساحة الحركات إلا أنها تستطيع أن تجهز جيش النجاشى بالخيالة .

ولدى الجيش الحبشى أربعون مدفعاً على أنواع مختلفة .

والأحباش جنود بالطبع فيتحملون السير الطويل دون تعب ، ويعسكرون ويسيرون بلاجلبة ولاضوضاء ، ويحصلون على معيشتهم بالتكاليف الحربية ولا يستخدمون وسائل لذلك . فالجندى يحمل أرزاقه معه وهى مقدار قليل من الذرة . والأرزاق التى تكفى الجندى الأوربى ثلاثة أشهر يعيش بها الحبشى سنة كاملة . فالحبشى من هذه الجهة قانع بما يتيسر له .

والوحدة السوقية فى الجيش الحبشى هى الفرقة أو القوة التى يخرجها الرأس أو الملك . وهذه القوة تختلف باختلاف مساحة مقاطعة الرأس أو الملك فيتفاوت مقدارها بين ٥٠٠٠ و١٠ر٠٠٠ رجل أو أكثر

والملك أو الرأس يجهز جنوده بالسلاح والحكومة تمده بالسلاح والعتاد عند الاقتضاء . ومع ذلك نرى أن بعض جنود الأحباش يدبر بنفسه أمر سلاحه وعتاده .

وقد علمنا أن الطليان دون أن يحسبوا حساب المستقبل جهزوا النجاشى بأسلحة حديثـة فنحوه ٥٠٠٠ بندقية و ٢٠٠ر٠٠٠ طلقة فى المرة الأولى و ٣٨٠٠٠ بندقية و ٢٨ مدفعاً فى المرة الثانية . أما البريطانيون فكانوا قد أهدوا الى رأس تيجرى ٩٠٠ بندقية . وإذا أضفنا الى ذلك السلاح الذى استطاع أن يشتريه منليك فى المدة الأخيرة علمنا أن لدى الأحباش عدداً كبيراً من البنادق الصالحة للاستعمال

ومن عادة النساء الحبشيات أن يرافقن الجيش فيحملن مواد الاعاشة والماء لرجالهن ويهيئن الطعام لهم فى المعسكر ويداوين الجرحى ويشجعن الجنود على القتال

أسلوب التعبئة عند الأحباش

يمتاز الأحباش بالهجوم السريع وبالشدة . ويحسن المشاة الرمى فلا يطلقون النار إلا من مسافات قريبة حرصا على ذخيرتهم ، وعند ما يقتربون من أعدائهم يحملون عليهم صارخين فيستعملون سيوفهم العريضة فى الحملة وجهاً لوجه ، وبرغم وعورة الأرض يحسن الأحباش الركوب . وإذا ما وقع فى أيديهم بغل أو جواد ينقلب المشاة حالاً إلى خيالة ، ويسير المشاة بسرعة . ويستخدم الأحباش على الأغلب الخيالة فى الجنبة ، وذلك للالتفاف حول العدو وقطع خط الاتصال عليه وإذا ما انتصروا عليه قضوا عليه القضاء المبرم بقتل رجاله جميعاً . أما فى الدفاع فيحسن الأحباش الاستفادة من الأرض ويعمدون إلى الكمون والمباغتة بنجاح

الجيش الطليانى

يتألف الجيش الطليانى من القوات الطليانية والأهلية المرابطة فى مستعمرة أريترة والقوات التى يمكن جلبها من إيطاليا

واستخدم الطليان فى بادىء الأمر السودانيين والصوماليين وبقايا الجنود المصريين فى المستعمرة بعد أن جعلوا نواة القوة من الطليان

وكانت القوة بعد الاحتلال بثلاث سنوات مؤلفة من ألفى جندى ، وفى سنة ١٨٩٤ نسق الطليان جيش المستعمرات بتأليفه من وحدات طليانية ووحدات أهلية بقيادة الضباط وبعض ضباط الصف الطليان

وكانت القوة الطليانية فى بادىء الأمر مؤلفة من فوج مشاة وفصيل مدفعية . أما القوات الأهلية المختلطة فكانت مؤلفة من بطارية وفصيل هندسة ووحدة درك وجنود نقلية

(يتبع) طه الهاشمى

المشــــكلة* ... !

للأستاذ كامل محمود حبيب

دخل الشاب مستأذناً ؛ فخلع طربوشه ، وألقى عصاه ، ثم جلس مبهوراً تتتابع أنفاسه ، ويزدحم الكلام على شفتيه ، لا يكاد يبين معنى من معنى ، أو يستقر خاطره على شيء ؛ فما استبنت إلا قوله يختم الحديث فى كلمات متقطعة منهوكة : « نعم ، وقعت المشكلة ! وقعت المشكلة ! فأين أجد الخلاص ؟ » ، وكنت قد وقفت عند قول أستاذنا الرافعى فى مقاله بمجلة « الرسالة الغراء : » « ووقعت المشكلة . . . » فعرفت ما يعنى صاحبى ، وهو كان صاحبَ هذا الحديث ، ومحورَ رحاه ، على أن الرحى لم تطحن إلا قلبه هو ، وكان قد كتب إلى أستاذنا يطلب الخلاص ، فأين رأى الخلاص من نُصح طبيبه . . ماأمرّ الدواء لو يجدى ، وما أقسى الطبيب ..! وقلتُ فى نفسى : « وا أسفا لهذا الشاب !! أثقُل عليه أن صفحة من صفحات قلبه قد نُشرتْ » ، وهو كان يحمل الهم كله فى صدره فما يثقل عليه ؟ ويل للشاب من الشيخ ، فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه ، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته . فأين يلتقيان ؟

ثم استوى الشاب فى مجلسه وقد اطمأن قليلاً وسرِّى عنه بعض ما كان فيه من اضطراب وقلق ، ثم قال : « أترى ما فعل بى أستاذنا ؟ لقد كنتُ - بادىء الرأى - فى عينه مهذباً ، متعلماً ، ذا رأى وبصر ؛ فما هى إلا دَوْرة الكلام فاذا أنا ساقط ، مرذولٌ ، ضعيف الرأى ! أفترى على الشاب من حرج أن يحلق فى سمائه ، يفتش عن قلبه الطائر حتى يرى ضالته . . ؟ والطائر الغِرِّيد - يا صديق - ينقب عن أنثاه التى تساكنه عُشَّه ، وترعى أفراخه . أفيكون لأبيه أن ينتقى له أنثاه من بين عصافير الغاب ، أم تراه هو ....! أو تحسبها هى تستقر اليه إذا لم تر فى ظل جناحه الرأفة والحنان والحب ! أرأيتَ يا صديق ؟ أرأيت هذا الطير ، يطير عن أنثاه إلى غيرها ، وهو نفسه الذى تملَّقها ، وفتنه مافيها من أنوثة وجمال ؛ وهو نفسه الذى اختارها لتشاركه حياة الطير ، وزقَّها وزقته ، وبادلها وبادلتـه الحب والحنان ؛ أم كان ينتقص من حريته ، ويسلب رأيه لو كان تعلم . . . ؟

إن الذى تعلم منا ، قد تعلم ليمسك بمفتاح القيد الذى ضُمتْ به إحدى رجليه إلى الأخرى ، وشُدتْ إحدى يديه إلى الثانية ، وماذا يكون وراء العلم إن لم يكن هذا ؟ . وإذا كان الرجل يقول : « هذا أبى ، وتلك أمى ، وهؤلاء أهلى » لينتسب اليهم ، أفيخرج عن أهله إن هو قال : « وهذه زوجتى ؟ » وإذا كنتُ رجلاً تنفذ إليه المرأة بين الشيطان والحيوان منه ، ويصده عنها الرجل الذى فى عقله ، أفكنتُ غيرَ الرجل الذى يريد أن يتمم القصة التى أتمها الله لآدم بحواء ؟ وهل قال الله لآدم : « هـذه متسماة عليك ؟ » أم قال لملك الحب : « ضع سحرك ، وابذرِ لغرسك ؟ » فهمّ آدم ليعانق حواء ، وهمت هى لتعانقه ، فبـدت الطبيعة أجمل ما تكون فى عين رجـل وامرأة ، ورأى بعين الحب التى تشع نظراتها من القلب ، وهو كان يرى بعين الجسد فما وراء نظرته معنى ولاعاطفة . ثم خلق من حبهما شاعراً ، وأديباً ، وفيلسوفاً ، وعبقرياً و ... وعاشقاً وعاشقة

قلتُ : ويْ ! كأنك قد طرت من الدنيا فلم تهبط إلا فى الفردوس ؛ كأنك لا ترى أنك فى حجرة إن لم تـكن ضيقة فهى ليست بالواسعة !

* * *

واندفع الشاب فى خياله ، وكأنه أراد أن يجمع إلى كتبه التى يطالعها ؛ ويرى الجمال فى صفحاتها ، صفحة أخرى من جمال الطبيعة ، وثالثة من جمال المرأة ؛ وظن الجمال فى عقله عنـد الـكتاب ، وفى نظره تحت ظل شجرة وارفة على ضفاف الوادى ، فى قلبه عند امرأة جميلة يميل اليها ويحبها ويرافقها إلى حيث يشبه الطائر الذى تحدَّث عنه ؛ وفى أذنه عند زقزقة العصافير وفى حديث هذه الفتاة التى يزعم عندها الجمـال والرقة والعقل ؛ وفى شمِّـه عند نسيم الصباح وشـذى هذه المحبوبة التى عرفها وهيَّمها وهيمته ، وخُيل إلىّ أن تماويذها قد فعلت فيه ، وأن قارها قد نالت منه ، وأنه قد أسلس لها وانقاد ، فقلتُ : أما أنت

* جواباً على مقالة الأستاذ الرافعى) الشكلة) المنشورة بالعدد ١٢٣

منها فكالذى نُوّم فهو يسير على غير ارادته ، أو سُحر فهو ينظر بغير عينيه ، أو التاث فهو يمشى فى غير طريقه ؛ وإن كان أستاذنا قد قال : فما عليك أن يرفع هذا السحر عنك ، ولـكنّ فى كلماته سحراً من نوع آخر . . .

قال : والذى يذهب بعقلى أن يقول الناس : إنك مسحور أو بك لوثة ؛ وقد تعلمت ـ فيما تعلمت فى حياتى ـ أن أفكر بعقل الفيلسوف ، وأن أطير فى سماء الخيال إلى حيث أقع ؛ ولئن كان الخيال قد أضر بى قليلا ، إنه لقد شبّ معى بمقدار ما شب عقلى معى ، فكان عقلى وخيالى ، ثم كانت حياتى وكلها دراسة عميقة فلسفية ـ فحجب عقلى خيالى حيناً ، ثم عاد خيالى للظهور مع هذه ، ولـكنه لم يحجب عقلى ، وكانت هى عقلا إلى عقلى ، وليست خيالاً إلى خيالى ؛ فكان عقلى أولاً ثم خيالى الصغير ، وكانت تقول : « أنا لك بعد عملك ومستقبلك ، ولست لك إلا أن تكون رجلا فذا » فتدفعني بكلماتها وقلبها وعقلها إلى المثل الأعلى . فياضيعة الأمل إن خاب هذا المثل ، ورُدِدْتُ إلى منزلى لأرى فيه مصيبتى ! ! وياخيبة الرجاء إن صرتُ كذلك الحداد أو النجار أو الحوذى ، أو ... أو غيرهم ممن لا يرون فى الحياة إلا أنها اللقمة والثوب والمأوى ، ثم ... ثم ذلك الضجيج البيتى الذى يصبح فيه هو وزوجته ويمسى ، والذى يشب عليه أبناؤها فيأخذون من سوء الخلق ، وضعة الأخلاق ، وسفالة الطبع ، والشقاق ، والتنابذ ، مما رأوا عليه أبويهم

إن أستاذنا ليقول : إنها فتاة الشعر والخيال ، وما هى كذلك ، وما قابلتها مرة ، أو حاولت ذلك إلا بعد أن أخلع عنى خيالى ، لأخاطبها بلسان الفيلسوف ، وعقل الحكيم ، وكم أردت أن أقول لها : « أى فتاتى ... ... » لأندفع معها فى غزل رقيق ، فكانت تنظر إلى بعين تقول منها : « ليست هذه لغتنا ... » فأرتد لأقول : « ولقد قرأت ... ... » ثم أخلو لنفسى لأشبع رغبتى فى الحديث الآخر ... بيني وبين نفسى ... !

قلت : أفترى أن الفيلسوفة العالمة تستطيع أن تكون زوجاً وربة دار ، وأن تكون أمًّا ومديرة بيت ؟ وهل تراها تنشئ لك الحياة التى قدّرتها فى خيالك ؟ إن الحياة ـ ياصديق ـ شىء غير هذا كله ، وإنك لمن بيت فيه الدين والاحتشام والشهامة ؛ أفليس من ذلك كله أن تمسك عليك زوجك التى اختار أبوك ، وأن تمنحها من نفسك ما يمنح الزوج ؟

قال : إنك تنحو منحى أستاذك . أفتريد أن تضيف الى همومى هماً آخر ، وأنا جئتك أستعينك على همى ... ! لقد كان أستاذك فى مقاله كالذى ينزع سكيناً هو أغمدها فى صدرى ليداوى جُرحاً هو الذى بلغ به هذا العمق العميق ، حتى إذا ما التأم أو كاد ، عاد فنكأه ، ثم عاد ثالثة ليداويه ... ! وصاحبتى التى اصطلحتما عليها لم تكن منى إلاّ بمنزلة المنظار من عين الأعشى ينظر من خلاله الى هذا العالم فيرى ما يراه ذو العين الصحيحة ؛ ولم تكن من قلبى إلا بمنزلة الاطمئنان من قلب المضطرب ، ولم تكن من عقلى إلا بمنزلة الطبيعة تفتح فيه طرقاً معبدة ؛ ولم تكن من حياتى إلاّ بمنزلة الصديق الوفىّ . ولعلك تذكر يوم أن كتبتُ اليك وكنتَ بعيداً : « لقد أبللت من مرضى ... » .
كان أخى فى منأى عنى ، ووقفتْ زوجتى بجوار سريرى ، لا تعرف كيف تصبّ الدواء فى فنجانة ، ولا متى يكون . وهفَتْ نفسى إلى التى أحبها حين خُيِّل الى أنى أموت فكتبتُ اليها وألححتُ ؛ فزارتنى على استحياء ، ثم ألححتُ فوقفتْ منى موقف الطبيب من مريضه ... ثم كتبتْ الى أهلى تقول : « إن ابنكم يحتاج الى من يقوم عليه ... » كتبت ذلك حين رأت أن فى زيارتها شيئاً ، ثم ... ثم لم تعُد

ولما أبللتُ وخرجتُ للقائها قالت : لقد كنت قاسياً ، وما استطعتُ أن أرفض حين رأيتُ الخطر . وما كان أجدر بى وبك ألا نقطع هذه المرحلة . يالشقائى بك ! ويالشقاء زوجك بك ! لقد أصبت قلبين بسهم .

وقالت لى وقلتُ لها ، ثم افترقنا ، وأردت أن أهب إلى التى فى دارى بعض نفسى فأشعرها بأننا أنثى ورجل ؛ فارتد قلبى عنها ، ثم أرغمته فارتد أخرى ، وأظلم منزلى من بهجة العزوبة ومن جمال الزواج معاً . وأصبحت الدار التى جملتها لسكناى هى جحيمى ، ففررتُ إلى الشارع وإلى عملى ؛ وشعرت الأخرى أنها لا تملك فى هذا المنزل ما تملكه الزوجة ففرّتْ الى حجرتها وإلى خادمتها ؛ واعتزلتها ، واعتزلتنى ؛ ورجعنا إلى ما كان ، حين كان بيننا (الباب المغلق) سنوات تسعاً

قلت إن أولى الناس باحسان المحسن ، هو القريب ، فالجار الجنب ، فالصاحب بالجنب ؛ وقد عرفتك محسنا ، وهذه من ذوى قرابتك ، وأقرب اليك من جارك ؛ أفلا تكون محسناً معها ؟

قال : لقد كنتُ أستطيعه لو وجدت النور . إنها لظلام وظلام ، وظلام ... أما الظلام الأول ففى منزلى ، وأما الظلام الثانى ففى قلبى ، وأما الظلام الثالث ففى عقلى ... !

* * *

وصمتَ وصمتُ ؛ وكان كأنه يسترجع الذكرى ، ذكرى أيام خلت ، ذاق فيها حلاوة العيش ، وسعادة الرضى ، وكأن حياته بماضيها ومستقبلها قد جمعت فى أشهر كانا فيها ...

ثم التفت إلىّ كالمذعور وقال : أما أننى كنتُ معها غير الرجل الذى فيه الرجولة فقط ، وأما أنها كانت معى غير الأنثى التى فيها الأنوثة فقط ـ فلا . إلاّ أنها كانت توحى إلىّ بكلام هو من لغة السماء ، وتصب فىّ حياة هى حياة أهل الخلد ؛ وكنتُ إلى ذلك مطمئناً وقد اطمأنت هى أيضاً اليه . وقنعتُ وقنعتْ . والناس يرون فى الحب الفاحشة ولا يرون فيه الجد . والذى يعيش فى حياته بلا حب كالشجرة العانس . ليس إلاّ هى فى الحديقة ، ولا سبيل الى أن تجد الشجرة الأخرى . . فلا هى بالذابلة الجافة ، ولا هى بالمثمرة ؛ ولكنها بارتفاعها وفقرها تقول : « أنا . . . أنا الموجود الذى لا وجود له . » فما أسرع ما تمتد اليها يد لتقتلها ، وحين ترى نفسها وقد نالتها فأس الحطاب تقول « . . أنا . . ويلى ! . . أنا الضائعة » . ان الذى لا يحب الجمال ولا يلتمسه فى امرأة ؛ ثم يفاخر غيره بذلك ، إنه لا يقول للناس « أنا لا أحب ولا أقدّر الحب . » بل يقول « أنا . . ما أنا فى الأحياء ! . . أنا . . أنا ميت الأحياء » والضعف الذى يراه فى الذين عرفوا الحب وآمنوا به ، إنما هو ضعف فى إنسانيته هو لا فى إنسانيتهم ، والذى لا يدرك الجمال فى المرأة لا يدركه فى الطبيعة ؛ لأن المرأة هى المنظار المكبر الذى ينظر الرجل من ورائه إلى ما حوله . وإلا فهو لا يرى موضعه من الأحياء . . »

أنا . . أنا انسان ولا أستطيع أن أقول إن كلّ شيء جميل ، وإن كان فى القبح جمال فقد يكون فى الجمال قبح ؛ ولكن هذه التى يقولون عنها أنها جميلة ... ثم أرغمونى عليها وأرغموها علىّ لا أرى فى قبحها جمالاً ولا فى بؤس الحياة معها فناً ...

قلت : ويلك : لقد اصطرعت فى نفسك عوامل رانت على بصرك وتركتك فى بيداء من الوهم والخيال ، كأنك تريد أن تخلع ثوبك ؛ وقد يكون فى الذى تخلعه جمال !

قال : أمّا أن أظلّ شريداً ، فلا . وأما أن أحتمل مع عبثى عبثاً آخر ، فلا . وأمّا أننى أهتم بنفسى ، فنعم . وماذا يضيرنى ويضير هذا العالم بما فيه أهلى وأهلها إذا لبست فوق ثوبى القديم ثوباً آخر ، فيخفى عن عينى وعين الناس هذا القبيح الذى كنت ألبس ؟

* * *

ثم تركنى ، وأنا أقول : واأسفا لهذا الشاب ! ! أثقل عليه أنّ صفحة من صفحات قلبه قد نُشرت وهو كان يحمل الهمّ كله فى صدره فما يثقل عليه ؟ وبلْ للشاب من الشيخ فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه ، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته . فأين يلتقيان !

كامل محمود حبيب

٤ – عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

تتمة

وانتظمت جيوش معاوية واتخذت سبيلها الى الشام لتثأر لعثمان الشهيد ... ولم يعد فى نفس أحد منهم شك فى أن عليا هو قاتل عثمان ... وأن حربه والانتقام منه فرض واجب على المسلم الصادق الأمين ، ومضى معاوية وعمرو على حصانيهما يتحدثان فى الطريق وإن معاوية ليحس خطر هـذا الرجل الصامت الى جانبه ... إنه ليعجب من هذا العقل الكبير الذى لا يقصر عن غاية ولا يعجز عن أمر ... وإنه ليخشاه ويرى سلطانه مهددا بوجوده ... ولكنه يحتاج اليه ولا يكاد يستغنى عنه فى هذه الملحمة المقبلة ... ولم يكن عمرو ليفكر فى غير ذلك ! ولكنه لم يكن منصرفا اليه هذا الانصراف كله ... فهو يعرف حاجة معاوية اليه ولا يخشى منه أمراً ... بل هو يفكر فى أمر آخر ، إنه ليفكر فى على وقوته ... ويحسب حسابها ويسأل نفسه ، ترى ما ذا أفعل لو انتصر علىّ على وهو أمر معقول جدا ... وإن عليا لفارس العرب وسيف الله البتار ؛ وإنه لصاحب الأيام البيض الخوالد والغزوات الزهر الباقيات ، وإن معه لنفرا من الفرسان الصناديد الذين يخشى منهم أى خشية .. فيهم الأشتر النخعى وفيهم من أصحاب الرأى ابن عباس ، وإن فى هؤلاء لغناء ومنعة من الفشل ... فما ترى ابن العاص فاعلا والأمر خطر والبلاء شديد ؟

وانتهت الجيوش إلى ضفاف الفرات ، واقتربت من طلائع على وعسكرت فى موضع سهل ومنعت الماء عن على ... وباتت قوات على عطشى حتى عيل صبرها فحملت على الشآميين فأجلتهم عن موضع الماء ... وبات الشآميون عطشى فندبوا من يسأل عليا الماء فأجاب ! ... وتلك كانت علة الرجل التى انتهت به الى الهزيمة فى ذلك الميدان ، فكيف يثبت الطيب للخبيث ، والرقيق للقاسي ، والاذعان للحيلة والدهاء ! (١) وزاد الأمر بلاء أن عمرا أدرك موضع الضعف من على ، وسنراه سباقا الى الاستفادة من إيمان على وشهامته ... انظر اليه قبيل صفين ... إنه يدور بعينيه فى معسكر على ليختار الدهاة والخبثاء ويتصل بهم ويشككهم فى أمرهم ... هذا الأشعث بن قيس يتفاهم مع عمرو ، وهذا أبو موسى يبدأ يشك فى حق على ... ثم تبدأ الدعاية القوية فى جيش على نفسه فتقعد همم الناس وتفتر عزماتهم ... ويرون قتال أعداء على تعبا لا طائل وراءه ، وإن عليا ليلزم جنوده شدة لا يطيقونها ، وإنه ليمنيهم بالجنة دون الغنائم والأسلاب ؛ وهؤلاء جنود الشام عليهم النعمة ظاهرة والخير وافر : وذلك عدل من معاوية ، وكياسة من عمرو ! ثم انظر إلى ميدان صفين : كيف تهم طائفة من أصحاب على فتكتسح العدو اكتساحاً وتكاد تأتى على معاوية ، وكيف تتقاعس طائفة أخرى حتى تكاد تفر من الميدان ، وكيف يلقى على مقاومة من أنصاره وممارضة من قواده . لقد تغيروا . لقد داخل نفوسهم الشك فى عدالة قضيته ؛ وإنهم ليرون ظل عثمان ماثلا على خلافة على ثقيلاً رهيباً . بلى وهذا الأشعث يقعد عن المضى ، وهذا الأشتر يمضى ، حتى تكاد الهزيمة تحيق بمعاوية . ويشتد الأمر بجند الشام وينظر عمرو حواليه ، فاذا الأمر مقضى ، وإذا الهزيمة قاضية ، فينحى على معاوية ويلومه لوماً شديداً . لقد بدا له أنه « خسر الصفقة » وأن السوق قد أتت بغير ما كان يقدر . إنه لثائر مغضب يلوم معاوية ، فيشتد فى لومه ، وإنه ليعتبره مسئولاً عن الخسارة التى حاقت به ، وإنه ليصارحه برأيه ومكنون سره ويقول له : « يا معاوية : أحرقت قلبى بقصصك ؛ ما أرى أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه ! لا والله ، إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها ، وايم الله لتقطعن لى قطعة من دنياك أو لأنابذنك . » (١) وإنه لينـدم على ما أتى من انضمامه ، وقد نسى قدر على وقوة جنوده ؛ والآن اتضح له الحق فهو يلوم ويندم ، ولكن ماذا يجدى ، وإن الخطر ليقترب ، وان جنود على لتكاد تمس جفاء معاوية ؛ وإنه ليركب حصانه ، ويهيب بعمرو : « الله ... الله ... فى الحرمات والنساء والبنات : هل مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا » ، ولكن كيف يسرع ابن العاص إلى مخبآته ، ويطوى

(١) ابن قتيبة « الأمامة والسياسة » ج ١ ص ١٧٢

(١) رواه الذهبي ، وأنا أشك فى صدق الجزء الأخير من « وايم ... » لأنه كان قد سبق للاثنين الاتفاق قبل الشروع فى العمل

خيامه ويلوى هارباً ، وما بعد ؟ ... إنه لينظر بعيداً ، وإنه ليرى علياً متعقباً إياهم حتى يقبض عليهم فى عقر دارهم ... كان هذا أمراً يخيف ابن العاص ... فانظر كيف يستغيث وكيف يحتمى بكتاب الله ... لقد عرف أن فى بعض رجال على ميلاً إلى المهادنة وترك القتال . فرأى الاستفادة منهم ... ثم أخذ يسأل نفسه قائلاً : ترى أى شىء يجله هؤلاء القوم فى هذه اللحظة التى تنكروا فيها لكل شىء ؟ فتجيبه نفسه : كتاب الله ... فيجيبها : فلنعتصم منهم بكتاب الله ، ولنرفع المصاحف على الرماح ؟ فيجيب نفسه ... بلى ... هو الرأى الصواب . فترفع المصاحف على الأسنة ويراها أصحاب على ، وكأنما كانوا يترقبون فرصة يكفون فيها عن القتال فيرون فى هذا حجة كافية ، ويكفون ويحتجون بكتاب الله ، ويدور على بعينه فى معسكر عدوه ليرى مطلع هذه البدعة فيجد أنه عمرو . وهنا ينكشف لعينيه سرها .. إنها خدعة . . إنها حيلة ، ولكن قومه لا يسمعون . وها هى صفين تنفض ، والأشتر يؤمر بالرجوع ، وينجو معاوية ، ويحول ابن العاص المعركة من حرب السيوف لحرب الفكر واللسان لكى يشل قوة على ، ولكى يكون هو فى ميدانه الصالح له . ثم انظر اليه يتدخل حتى فى اختيار على لمندوبه ... إنه ليتصل بالخونة من أنصار على ويوعز اليهم فيرفضون عبد الله بن عباس لأنه فتى ذكى مخلص لقضية على . ثم يرفضون الأشتر لأنه متفان فى خدمة ابن أبى طالب ، ولكنهم يؤيدون الأشعرى لأن عمرا يعرف أن بينه وبين على شيئاً ، وأن التفاهم قد يجدى معه كثيراً ، وينفض الجمع ليلتقى فى دومة الجندل

ترى فيم يفكر ابن العاص فى هذه الفترة ... فى مصر وأمورها ... لأنها ستعود اليه بعد قليل ... إنه يكيد لواليها الجديد قيس بن سعد بن عبادة الانصارى فيشيع فى حزب على أن قيساً قد انضم لحزب معاوية ، فيعزله على ويضع مكانه الأشتر النخعى فيموت الأشتر مسموما عند « مسروره » بالقلزم فى ٥ رجب ٣٧ ... أترى لعمرو يداً فى ذلك ؟

ثم يكون التحكيم الذى لم يرو التاريخ مثله أبدا ، والذى لم يوفق مؤرخ فى روايته على أصله أبداً ، والذى يرفض العقل أن يقبله فى صورته التى وصلت الينا ... ولكننا نستطيع أن نفهم منه كيف كان الناس ينظرون إلى عمرو ! وكيف اعتبرته الأجيال أشد الناس لؤما وأكثرهم خبثا ... لقد وفق عمرو توفيقاً عظيما ... ولم يكن توفيقه راجعا الى مهارته فى الكيد وحدها ، بل الى وجود الضعاف والخونة فى صفوف خصمه وحسن استفادته من هؤلاء ... هذا هو يتدخل فى انتخاب مندوب على ويرضى أخيراً عن أبى موسى الأشعرى لا لأنه أبله أو شيخ كما يزعم الرواة ، بل لأنه غير راض الرضى كله عن على ... ولأنه قابل للفتنة مستعد للمساومة ؛ وهذا عمرو يخلو به ساعات طوالا يتحدث اليه فى الأمر ، ويتفنن فى إقناعه ... وينفذ اليه من شتى السبل حتى يوفق الى تشكيك الرجل فى عدالة قضية على ، بل الى اتهامه بمقتل عثمان ... فاذا خلص من هذا فقد أفهمه أن لعثمان أولياء يطلبون ثأره من القاتلين ... وأن الأولياء هم معاوية وعامة آل أمية ... فاذا خلص الى هذا فقد أقنع خصمه بعدالة ثورة معاوية ... ثم يسأله : فماذا ترى ؟.. فيصمت الشيخ فيقول عمرو : إننا نرضى بتنازل على ثمنا لدم عثمان ؛ فلا يرى أبو موسى حرجا فى ذلك ... ويطرب لذلك عمرو ، فقد خسر منافسه الخلافة ولم يخسر هو شيئاً ... وهو إنما يرجو أن يخلع الخلافة عن على ليصير هو ومعاوية صنوين ... ثم إنه يعرف أن أنصار على ملتفون حوله لأنه خليفة ، فاذا زالت عنه الخلافة تفرقوا ... وقد أفلح ... بل إن أنصار على ليتفرقون قبل خلعه فى التحكيم ... ويصبح معسكره فوضى ... وينفض الخوارج ويتفرقون ويحاربهم فى النهروان ... كل هذا يرضى عمرا لأن فيه إضعافا للخصم ، فاذا تم الأمر ونزعت الخلافة لم يصبح لعلى بعد ذلك شىء ويذهب أمره هباء

ثم يعلن الحكمان ما وصلا اليه : لقد رأينا خلع على [1] ... لقد ثارت الفتنة واضطرب الأمر وأسقط فى يد على وأنصاره ... وقد كسب عمرو كل شىء وأصبح على عاجزا عن استنهاض همم جنوده لحرب معاوية ... وقد قوى أنصار هذا الأخير فخافهم الناس واتحد جند معاوية وقوى أمرهم واشتد ساعده بهم ، واستطاع أن يفصل عن على بلاده جزءا جزءا حتى إذا قتل سنة ٤٠ هـ لم يكن قد بقى فى يده من الأمر شىء

هكذا فعل عمرو : فرق الصفوف وأشاع الفتنة وأقام هذه الفوضى التى لم يخلص الاسلام منها الى أواخر أيامه . . .

(١) هذا ما نراه ولا يعقل أن يكونا أعلنا خلع على ومعاوية لأن معاوية لم يكن خليفة فيخلع

لكي يصل الى شيء واحد . . مصر . . لقد باع الحق وارتهن الفضيلة ، وساوم على طمأنينة الدولة الاسلامية ليكسب شيئاً واحداً ، هو مصر بخيرها وبركاتها

وانظر اليه لقد أسرع الى مصر فى ستة آلاف مقاتل ، يقطع بهم سيناء على عجل سنة ٣٨ هـ ، فاذا أشرف عليها فقد أرسل يهدد محمد بن أبى بكر الصديق ليخلى بينه وبين ما يريد . ولكن محمداً رفض ، ولم يدر أن غريمه قد باع الدنيا والآخرة بهذا الذى يعارضه فيه ؛ والتقى الجمعان ، وفر محمد وتبعه معاوية بن حديج وقتله فى المنشاة

ثم انظر صراعه مع معاوية على مصر . إن الأول ليستكثر عليه هذا البلد الغنى الطيب ، وإنه ليراه غير أهل لتلك النعمة الوارفة . فانه لجالس ذات يوم فى نفر من صحبه وفيهم عمرو فيقول :

– ما أعجبُ الأشياء ؟ فيجيب يزيد ابنه :

– أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض . . . وقال آخر :

– حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل . وقال عمرو :

أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق . فيسرع معاوية ويقول :

– بل أعجب الأشياء أن يعطى الانسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف

بلى فهو أعجب الأشياء ... وهل يستحق عمرو مصر وهو لا يخاف (الله)

ذلك رأى معاوية فى عمرو ... ثم انظر الى معاوية يحترس من عمرو فى كتاب توليته فيكتب : « عَلى ألا ينقض شرطٌ طاعة ...» فيمسك عمرو بالقلم ويبدلها : « على ألا تنقض طاعةٌ شرطاً »

وعاش عمرو بعد ذلك ما شاء الله له أن يعيش ، وأنجاه الله من يد قاتله لكى ينعم قليلا بالشجرة الخضراء التى خسر فى سبيلها كل شيء . وتردد بين مصر والشام كثيراً ، ليجلس الى معاوية . . ثم ليخلو الى أولاده ، وكانت مصر قد صارت له طعمة ، فاطمأن باله وترك الكفاح والجلاد ، ولكنه لم ينس الكسب والخسارة الى آخر أيامه ؛ فانه لجالس مع معاوية يوماً إذ سأله هذا ما بقى منك يا عمرو ؟ فيجيب : «مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته . . »

أجل لازال فى سن السبعين يفكر فى غرس المال والاصابة من ثمرته وغلته ؛ وهكذا ينبغى أن يفهمه الناس ، فان اجتهاده فى السياسة ونبوغه فى الحرب كان مصدرهما شيئاً واحدا : الرغبة فى الكسب والربح . . وقد انتهت جهوده الى شيء واحد ، لا هو الملك ولا هو الثواب . . بل ليست هى الآخرة نفسها وإنما هى مصر . . أغنى ولايات الدولة وأوفرها مالا . وقد مات وخلف ألف ألف درهم كما يقول السعودى ودورا عديدة كان يمتلكها فى مصر والشام

(تم البحث) حسين مؤنس

الصحراء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أرُحْبُكِ أم صمتٌ على الأرض غالب … غدا مُصْحِرٌ من روعه وهو هائب

كصمت الخشوع المطرقين تروعهم … مقابرُ صرعى للردى وخرائب

وصمتٍ لِذِى المحراب فى بيت ربه … يقاربه فى صمته ويخاطب

توَقَّعَ من قد غاله الصمت هاتفاً … يكلمه من فرط ما الصمت راعب

كمخترق الظلماء لاح لعينه … إذا جال فيها اللحظُ ما هو غائب

حَرَى أن يناجى النفس فيك أخو الحجا … ويخشع صمتاً راكب فيك ذاهب

ويخشع من رُحْبٍ كأنْ لا مدى له … حكى أبداً ما حَدَّهُ الدهرَ حاسب

ويخشع أنْ لا شئ إلا مجانسٌ … فلم يُلْفَ إلا مُشْبِهٌ أو مناسب

وكم راعِ رأى العين إن كان لا يُرى … سوى الشِّبْهِ يتلوه الشبيه المصاقب

حكى خدعة الآمال آلك رافعاً … على الأفق بشرى كذَّبتها العواقب

سراب الأمانى فى الحياة خديعةٌ … وقد تُهلِكُ المرءَ المنى والرغائب

ومن ضل فى خرق من العيش لبه … كمن خذلته فى الفيافى المذاهب

تَفَتَّحُ أبواب الجحيم عن اللظى … كأن شواظ القيظ يسفيه دائب

سموم كدُفَّاع البراكين أو لظى الـ … حرائق يصلاه الحصا والنجائب

ويصلاه ركبٌ خال دنيا تقلّصت … عن النار لو يسمى جحيمٌ مقارب

ويَسْوَدُّ وجه الأفق حتى كأنما … ذُكاه دجت أو يكسف الشمسَ حاجب

وكم حار ركبٌ من فجاءة صحوة … كما راع مرأى الحسن والعُرْى سالب

إذ الجو كالبِلَّوْرِ أُخلِصَ لونه … وصب عليه من سنا الشمس ساكب

كذلك غب الغيث ريعان بهجة … كأن طلاء قطره وهو صائب

كأن ضياء فى سواد سحابة … تكاثر حتى ثقَّبَ الدجنَ ثاقب

تَفَجَّرَ ينبوع من النور غامر … كما غمر الأرضَ المياه السوارب

ضياءٌ ترى المألوفَ من كل منظرٍ … به فإذا المألوف منه الغرائب

وما فرحة الولهان عاد حبيبه … بأصدق منها فرحةً وهو آيب

نهارك أم ليل الدرارىّ نائل … من اللب نيلاً لم تنله الكواعب

أديم سماء يُبْرِزُ الشهبَ صَفْوُه … فأحسبها تدنو به وتقارب

أما يخشع السُّمَّار من كثرة الدنى … ويذهل من رحب الفضاء المراقب

يبيت يناجى النجم والنجم سامر … فتُفْضى إليه بالحِوارِ الكواكب

كأن لحاظ النجم من لحظ عاقل … وأن رقيباً فى السماء يراقب

يسائله عن عيشه أين سره … كأن وراء النجم ما هو طالب

إذا خط فيك الدهر سطراً محوته … كذا اليم، لا يقوى على اليم كاتب

وتُرْقِل فيك اليعملات وإنما … سفائن لج البيد تلك الركائب

وللبحر أمواج وللبيد مثلها … إذا هب إعصارٌ على الركب كارب

فيغرق فى لجٍ من الترب حائر … كما احتشدت فوق السفين السوارب

ورحبك رُحْبُ البحر يطويك هائب … ويركبه ذو مطلب وهو هائب

بأفقكما للشهب رهب وروعة … جلالكما شِبْهٌ وشِبْهٌ مقارب

وذى دولة فى اليم قد دال أمره … وآخر أردته لديك المطالب

ويصغر عيش المرء فى اليم مثلما … تضاءل فيك عيشه والرغائب

لِمخْلِكِ يلقى مكرم الضيف ضيفه … بخير، وأما خصمه فهو سالب

وتشحذه الأخطار حتى كأنما … بنوك سيوف ينتضيها المحارب

لقد صقلتها نار قَيْنٍ وصيقل … كما صقلتهم فى الحياة النوائب

تَنَسَّكْتِ فى بُرْدِ التقشف لم يَلِنْ … معاشٌ ولا ترجى لديك الأطايب

عبد الرحمن شكري

لُبْنَان

[تهدى إلى أخى الأستاذ على الطنطاوى]

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

غَابَ لُبْنَانُ فى رَقيقٍ من الغيْـ ... ـمِ كما غابَ فى مَدَى اليمّ زَوْرَقْ
ضَفَرَ الثَّلجَ والسَّحائبَ تاجاً ... وَاختفَى فى الضَّبابِ ثَمَّ تعلَّقْ
الهِضَابُ الشُّمُّ اكتستْ وَرَقَ الخلْـ ... ـدِ وَطافَ الرَّبيعُ فيها وأَحْدَقْ
والرَّوابى تَوَسَّدَتْ رَاحةَ السُّحْـ ... ـبِ ونامَتْ على وِشاحٍ مُرَوَّقْ
والذُّرَى البيضُ فى العلاءِ نُسُورٌ ... حَوَّمَتْ تكشِفُ الخفىَّ المُغْلَقْ
نَشَرَتْ فى الفضاءِ أجنُحَها الزُّهْـ ... ـرَ فأسْنَى بها الوجودُ وأشْرَقْ



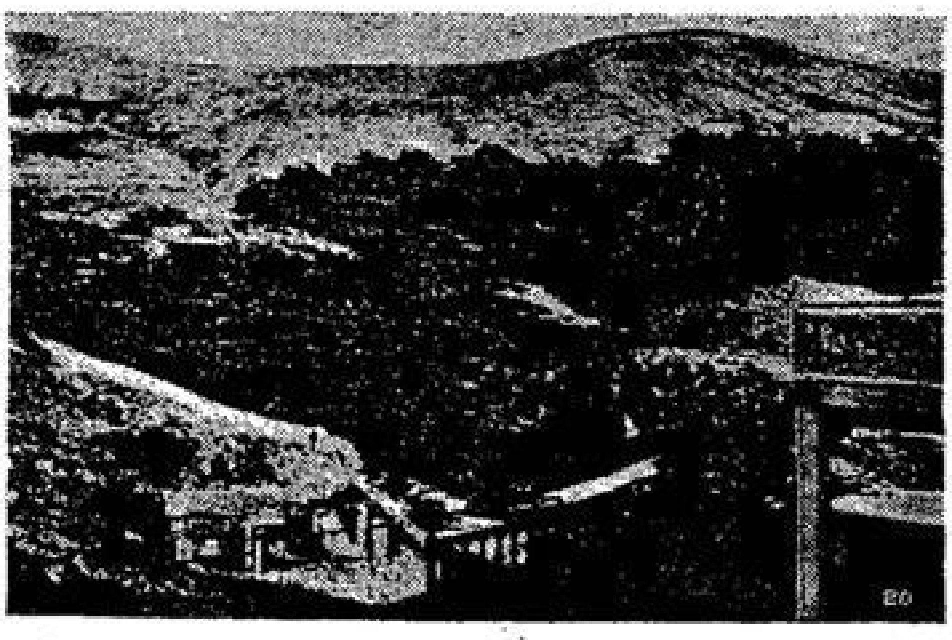
جونيه (من قرى لبنان)

والقُرَى غَلْغَلَتْ بأخْبيةِ الغيْـ ... ـبِ وضاعتْ بَيْنَ الغمامِ المُنَمَّقْ
غَرَقٌ مِلْؤُهُ فُتُونٌ وَسِحْرٌ ... وَنعيمٌ ضافٍ وَحُلْمٌ مُزَوَّقْ
والينابيعُ ضاحكاتٌ مِنَ الزَّهْـ ... ـوِ تَرَامَى فيها السَّنا وَتألَّقْ
سَرَدَتْ قِصَّةً مِنَ النَّغَمِ الخُلْـ ... ـدِ وَمِنْ سَجْعَةِ الحَمامِ المُطَوَّقْ
ضَجَّتِ الرَّبْوَةُ الأنيسةُ بالشَّدْ ... ـوِ وَغنَّى السَّفحُ الحبيبُ وَزَقْزَقْ
وَتَمَشَّتْ بالغابِ مَوْجَةُ أُنْسٍ ... فَشَدَا الأَرْزُ والصَّنَوْبَرُ صَفَّقْ
وَتَرَاءَى البَحْرُ البعيدُ كحُلْمٍ ... مُبْهَمٍ رَاجِفِ الخيالِ مُلَفَّقْ
سَرَقَتْهُ السَّماءُ فى الأُفقِ النَّا ... ئِى فَمَنْ أبصرَ الخضمَّاتِ تُسْرَقْ
حَبَّذا فى رِباعِ « زَحْلَةَ » وَادٍ ... بَرْعَمَ الحُبُّ فى حِمَاهُ وَأَوْرَقْ
وَبأَفْيَائِهِ الألطافِ الحَوَانِى ... سَرَبَ النَّهْرُ كاللُّجَيْنِ المُطَرَّقْ
وَتَرَامَى الصَّفْصَافُ فى مائِهِ الرَّقْـ ... ـرَاقِ يَسْجُو على الضِّفافِ وَيَغْرَقْ
وعلى السَّفْحِ تَستَرِيحُ الدَّوَالِى ... فى نِظَامٍ حُلْوٍ وَنَهْجٍ مُنَسَّقْ



(وادى زحلة)

والعناقيدُ بَيْنَهُنَّ نَشَاوَى ... ثَمِلاتٌ مِنَ الرَّحيقِ المُعَتَّقْ
رَنَّتِ الخَمْرُ فى ظُرُوفٍ مِنَ النُّو ... رِ وَكادَ الشَّذَا يُشَمُّ وَيُنْشَقْ
ذَاكَ «صِنِّينُ» فَيْلَقٌ فى السَّمَوا ... تِ وفى الأرضِ جاثِمٌ مِنْهُ فَيْلَقْ
هُوَ جارُ النُّسُورِ حَطَّ على الغيْـ ... ـمِ وَأَسْرَى إلى العَلاءِ وَحَلَّقْ
والسُّهُولُ الفِسَاحُ دُنْيا مِنَ الإلْـ ... ـهامِ تَنْدَى مِنَ الطُّيُوبِ وَتَعْبَقْ
والمَسَاءُ السَّاجِى البَهِىُّ رُسُومٌ ... وَرُؤًى كُلُّها تُحَبُّ وَتُعْشَقْ
والقَطِيعُ المِمْرَاحُ غَنَّاهُ رَاعِيـ ... ـهِ فأَصْغَى مُسْتَمْهِلاً وَتَشَوَّقْ
هَدْهَدَتْهُ الرَّبابُ فانسابَ كالنَّهْـ ... ـرِ وَأَهْوَى مِنَ الرُّبَى يَتَدَفَّقْ
مَلأَ الكَوْنَ بالثُّغاءِ فما تَسْـ ... ـمَعُ إلَّا صَدًى يَطِنُّ وَيَزْعَقْ
عَادَ واللَّيْلُ مُتْعَبٌ هَبَطَ الأَرْ ... ضَ وَأَغْفَى على الجبالِ وَأَطْبَقْ



(الأرز)

إيهِ لُبنانُ يا نَشيدَ الأناشيـ ... ـدِ وَيا صُورَةَ النَّعيمِ المُحَقَّقْ

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

جنازة السلام

بمناسبة الحرب بين ايطاليا والحبشة

للأستاذ محمود غنيم

أرأيت إذْ وُلِدَ السلامْ   فنَمَوْهُ من قبل الفطامْ
وضعته « أُورُبّا » لنا   ياليت « أوربا » عُقَام
طفــلٌ برىءٌ ذاق مِنْ   يد أُمّهِ كأسَ الحِمام
نحروا الغــلامَ ضحيةً   فى عيد ميلاد الغــلام
لهفى عليــه ممزّقَ الْـ   أوصال مُنْتَثِرَ العظام
عصفت به ريحُ الوغى   عصفاً وغطّاه القتام
فمضى شهيــداً ما له   قبرٌ يُزارُ ولا مقام
ليس السلامُ بسائد   ما دام فى الدنيا حُطام
ما الناسُ إلا الناسُ فى   عصر الضياء أو الظلام
سيّان مَنْ سكنَ القصو   رَ الشمَّ أو سكن الخيام
بسوى الدمّ المسفوح لا   يُرْوَى لظامئهم أوام
وأَحَبُّ ما وقعت عليـ   ـه عيونهم جُثَثٌ وهام
وهُوَ ابنُ آدمَ ينتشى   من خُمْرَة الدم والمدام
الذئب كالانسان لو   يتعلم الذئبُ النظام
فكلاهما وحشٌ حد   يد الناب يلتمس الطعام
سِيّان عنــد الفتكِ نا   بُ الليث أو حدُّ الحسام
قالوا السلامُ فقلت ما   أقوى اللسانَ على الكلام
وتعاهــدوا فسألتُهم   ما حَدٌّ مَنْ خَفَرَ الذمام
أبغصن زيتون يُجا   زى أم بصارم الانتقام(١)
قالوا السلامُ فقلتُ كم   قد حارب الرُّسُلُ الكرام
لا «الفاتيكانُ» من الحرو   بِ نجا ولا البيتُ الحرام
قد كانت الخلفاء تُضـ   ـرَبُ بين زمزمَ والمقام(٢)
كلٌّ يُشيرُ إلى السلا   مِ بعين ذئبٍ لا تنام
وأمامهُ أُســطولُه   ووراءه الجيشُ اللُّهام
فَقَدَ المهنّدُ عرشَــه   والمُلْكُ ليس له دوام
نارٌ وغازٌ فاتكٌ   بدلَ الأَسنّة والسّهام
شبح المنيّة جاثمٌ   فوقَ المياهِ أو الرغام
أو فى الفضاء مرفرفٌ   بجناحه مثلَ الحمام

* * *

جبّارَ رُوماَ سوف تلْـ   ـبَسُ تاج قيصرَ فى المنام
أتريدُ ويحك أن تُؤَ   خِّرَ أهْلَ جيلِكَ ألفَ عام
ولّى زمانُ القيصر   يّةِ والقياصرةِ العِظام
أوَ ما رأيتَ الحكم با   ت الآن فى أيدى الطَّغام
ولقد مَشَيتَ القهقرى   ومشى الزمانُ إلى الأمام
أإذا صفا جوُّ السلا   مِ زَفَرْتَ فانتشر الغمام
رُحماك هل تشكو إليـ   ـك الأرضُ من هول الزحام
لم تخبُ نارُ الفتنة الـ   ـكبرى وجُرْحُ الكون دام(٣)
ولقد تحدّيْتَ الأنا   مَ فكنت سخريةَ الأنام
أسرفتَ ويحك فاتئد   ماذا جنى أبناءُ حام(٤)
لا تحسبَنَّ مرابضَ الْـ   آسادِ سهلةَ الاقتحام
هــذى معاقلُهم فمن   لك بالبواذخ من شمام
ها هم خصومُك حول شَـ   ـطِّ المَنْشِ إن شئتَ الخصام
القابضون على چنيـ   ـفَ ورهطِها مثلَ السوام
قالوا الحصارُ فأذعنت   « والقول ماقالت حذام »
أخــذوا على روما المسا   لكَ فهى فى ضيق المسام

(١) يشير بذلك إلى أن فكرة السلام لا يمكن توطيدها بدون الحرب

(٢) يشير إلى حادثة قتل ابن الزبير وصلبه بعقد إطلاق المنجنيق على الكعبة التى اعتصم بها

(٣) يشير إلى الحرب العظمى

(٤) يشير إلى ما تشير اليه الخرافة من أن الاحباش وغيرهم من الهنود من نسل حام بن نوح

عالَمٌ أنتَ للهوَى والأماني   يُشْتَهَى السِّحْرُ فى حِماكَ فيُخْنَقْ
دَرَجَ الحُبُّ فى ثَرَاكَ نقيًّا   ولَهُ فِتْنَةٌ تَرُوعُ ورَوْنَقْ
وَبِأعْطَافِكَ الرِّقَاقِ الحَوَاشِي   وَقَفَ الحُسنُ خاشِعاً ثمَّ أطْرَقْ

* * *

... وتَطَلَّعْتُ مِنْ مَشَارِفِ لُبْنَا   نَ أُنَاجِي مِنْ صَفْحَةِ الغَيْبِ جِلّقْ
تِلْكَ مَأْوَى رَغَادَتِي وَخَيَالِي   وَبِهَا قَلْبِيَ اللَّهِيفُ مُعَلَّقْ

أنور العطار

القصص

أقصوصة عراقية :

أبو جاسم

للأستاذ محمود ا. السيد

— ١ —

حدثني صديقي ابراهيم والذكرى تؤلمه ، قال :

« كنت في المدرسة الثانوية — السلطانية العثمانية — قبل احتلال الجيش البريطاني بغداد بسنة أو أقل ، أصاحب طالباً من ذوي الذكاء الواعد والخلق الجميل . كنت في السادسة عشرة من العمر . وكان هذا الصديق — واسمه علي بن حسن — خير عونٍ لي في المدرسة . وكنت أعجب بذكائه .. وكان طليقاً جريئاً يسمو على أقرانه بكثير من المزايا والصفات

وكان الى جانبنا طالب آخر يكمل لنا « ثالوثاً » مقدساً بالأخاء والوداسمه عبدالعزيز . وهو من أبناء الطبقة العاملة . كان أكبرنا سنا ، وأقلنا تهذيباً ، وأجرأنا قلباً ، يقلدني وعلياً في الاعتزاز والتفاخر برجال التاريخ الاسلامي العربي : أجدادنا الأولين . وذلكم كان ديدننا في ذلك العهد : فجر الحرب العالمية الاستعمارية الكبرى وضحاها

وكان أكثرنا حباً لبغدادنا وإيغالاً فيها . . . يعاشر خارج المدرسة فتيةً من أبناء طبقته المكدودة فيشاركهم فيما يعتقدون من باطل العقائد والخرافات . وكان يرى — فيما يرى من غريب الآراء — أن القبعة العسكرية « الأنورية » التي ابتدعتها الحكومة الاتحادية إبان الحرب لرجالها ولطلبة المدارس ، قبعة أفرنجية ، حرام على المسلمين لبسها ، وأن رباط العنق رمز للصليب . ولم يلبس القبعة حتى آخر يوم من أيامه في المدرسة ، فكان الطالب الوحيد البارز من بين الطلبة بطربوشه الأحمر القديم . أما أنا وعلي فقد لبسنا القبعة تلك لأننا لم نستطع أن نشذ عن الجماعة شذوذه .

وكان هذا الصديق الجريء يقضي أغلب أوقاته في منازعة الطلبة وتحديهم ، فكنت أنصحه راجياً منه أن ينصرف عنهم وعن منازعتهم الى التوفر على دروسه فما كان النصح يجدي

وكان يؤسفني أنه عُرف آخر الأمر بأنه شكس سيء الخلق ، وإن كان في الحقيقة طيب السريرة خيّراً . ولعلهم كانوا يعيبون عليه كرهه للبس القبعة « الأنورية » لغير ماسبب معقول . وكانوا يتخذونه وطربوشه القديم الذي أوشك أن يبلى هزواً ؛ وهذا ما كان يهيجه . ولم يزده عقاب المدرسة إياه على شغبه إلا جرأة واستمراراً في الشغب والنزاع والخروج على « النظام »

وكما كان يكره القبعة ، كان يكره الحكومة — الاتحادية — أشدّ الكره ، لأنها حين اضطرمت نار الحرب جندت أخاه الكبير وأرسلته مع من أرسلت من أبناء العراق الى سوح الوغى في القوقاز ، ففقدت أسرته بذلك قوامها وسبب حياتها ، كان قائماً مقام أبيه الشيخ الكبير الذي لا يستطيع عملا ، وكان يحسب أنه لاحقٌ به في العاجل القريب

---

* ضاق نطاق هذا العدد عن الصور الرائعة التي يجلوها الأستاذ دريني خشبة من (صور هوميروس) فمعذرة إلى قرائها المعجبين بها . وسنوالي نشرها من العدد القادم

عَجَبي على باغٍ يقو ... لُ لمن بغى : هـذا حرام
استعمروا فتلثموا ... وخرجتَ مكشوفَ اللثام
رمتَ التنمّرَ مثلهم ... فظهرت في ريش النعام
شَرِزٌ بروما طار يو ... شِكُ أن يكون له ضِرام
الشعبُ هُدِّدَ بالطوى ... والجيشُ بالموت الزؤام
يتساءل الأقوامُ هـل ... « نيرونُ » بعد الموت قام
زعزعتَ أركان السلا ... مِ فذُقْ مرارة الانهزام

كوم حماده — محمود غنيم

وظاهر أن هذا المسلك الذى سلكه عبد العزيز يومئذ كان يجب أن يؤدى إلى شر . وكان يجب أن يكون مصيره « الطرد » من المدرسة والحرمان من العلم . وكان متوقعاً كذلك أن ينالني بعض الأذى من أجله ، فقد كان المدرسون والطلبة - إلا القليل منهم - يناوئوننا معاً ويكرهوننا ويعادوننا أشد عداء . .

واشتدت الحرب فى العراق . وطغى سيل الغزاة الفاتحين . غلب البريطانيون ، وأصبحوا على أبواب بغداد ، فتنكرت الأيام للناس ، وجندت الحكومة طلبة الصفوف العالية ، وأكبت على طلبة الصفوف التالية الأخرى تعلمهم كما تعلم الجند فنون الحرب والضرب وتقحمهم فى أشق الرياضات العسكرية لتلحقهم بهم . وهنا كان صحبنا الطلبة جميعاً - فى مدرستنا - جبناء ، يملأ قلوبهم الرعب والخوف

أما عبد العزيز فقد استيقظ فى نفسه من جراء ذلك شعور بغض للمدرسة ، بغض للخروج مع الطلبة - على ما كانوا يفعلون فى كثير من الأحيان - إلى استقبال القواد وحضور الحفلات الحكومية ، بغض لمدرس الرياضة الذى أرسل الينا آنئذ من الجيش ، وهو ضابط فظ بدين ، ذو شاربين غليظين منتصبين كالصياصى ... وكان يخشاه

وكان - من بعد - حين يخرج من بيته صبحاً يتلكأ فى الذهاب الى المدرسة ، ويحاول أن يتمارض لكى ينقطع عنها أياماً قليلة أو كثيرة . كان يغادر البيت كل صبح ، وكأنه - كما كان يقول لى - يساق إلى سجن لا الى دار علم وعرفان

وجاءنا إذ ذاك مدير للمدرسة جديد . وهو رجل عنيد ، كان يحسبنا مجموع دُمَى من الشمع يسهل عليه اذابتها ثم صنعها ثانية على الغرار الذى يريد . وكان أول من لفت نظره اليه من الطلبة : عبد العزيز ؛ فقد أثار سلوكه اهتمامه وعنايته ، وراح يرهبه ويعالج تأديبه وتهذيبه بالعصا . وأذكر أن طالباً من أبناء الضباط الذين جاءوا بغداد فى أواخر أيام الحرب من البلاد الشمالية ، سفهه ذات يوم ثم عيره بالعامية والفقر ، فقابله بالصفع والضرب الموجع المهين ، فما كان نصيبه من المدير إلا الاهانة و « الطرد » . وبذلك أسدل الستار على حياته المدرسية ، وألجئ الى التشرد والعطلة ! وا أسفاه ! !

ولقيته بعد ذلك فألفيته جزعاً ، وقص على قصة النزاع بينه وبين ذلك الطالب - ولا أذكر اسمه الآن - قال :

« غادرت البيت صبحاً وأنا كئيب محزون ، لأن أمى التى لا تفتأ تذكر أخى الجندى ليلاً ونهاراً بالحسرات والدموع ، وأبى المقبل على آخرته غير آسف على شىء فى الدنيا ، وهو يحبه حباً جماً ، لم يصل اليهما كتاب منه منذ شهر وبعض شهر . فأفرغ ذلك صبرهما بل أفقدهما الرشد . وإذ كنت أمشى فى الشارع فاجأنى خمسة من الشُرَط يعدون وراء رجل علمت من بعد أنه جندى هارب . وصرخ أحدهم قائلاً : « خائن ! قف ! » ثم أطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم فأردوه . وسقط تعباً جريحاً يلهث وعيناه تنظران الى السماء . ووقفت على مقربة منه أنظر اليه فى لهفة وفَرَق ؛ وهو ملقىً وقد اصفرّ لونه وجللت وجهه سحابة من قَتَر الطريق ، وتشنجت أعصابه من الخوف ، وأقبل الشُرَط يتراطنون يريدون أن يحملوه ... أعرضت عن هذا المشهد الذى آلمني أشد إيلام وانصرفت صامتا ، ولحظت أن الشمس تملأ الأرجاء نوراً ، فعرفت أننى تأخرت عن موعد الدرس الأول . وكنت أمشى متباطئاً ذاهلاً ، فما انتبهت إلا وأنا على باب غرفة صفى ... طرقت الباب طرقاً خفيفاً مرة فمرتين وحاولت الدخول فجابهنى المعلم ناهراً إياى بقوله : « أخرج ، اخرج ، اندفع ياحمار ! » أو كنت حماراً فى اصطبل أبيه ؟ ! وكنت حتى حين خروج الطلبة من الصف إثر الفراغ من الدرس ثائراً مهتاجا ، فلقينى ذلك النذل فلاغانى فلكمته ، وماذا كان يجب على أن أفعل ؟ وسحقاً للمدرسة بعد أن ينالنى من هؤلاء فيها أذى ! »

* * *

وقال صديقى ابراهيم وقد حدثنى بحديثه هذا بعد انتهاء الحرب ومرور سبعة أعوام على نهايتها :

« ثم احتل البريطانيون بغداد ، وفرقت صروف الزمن بيننا - بعد ذلك - إذ رحل بى أبى وأسرتنا كلها الى الحلة ، فأقمنا فيها قرابة سنين أربع ، فلما عدنا اليها لم أسمع لصاحبى عبد العزيز ذكرا »

— ٢ —

وكتبت هذا الحديث لطرافته عام ١٩٢٩ . ثم مضت على ذلك أعوام ثلاثة ، فبدا لى يوما أن أسأل ابراهيم !

« هلا بحثت فى هذه المدة الطويلة الماضية عن رفيقك القديم ؟ رفيق المدرسة وطريدها عبد العزيز ؟ »

فأجابني وهو شاعر بما يتضمنه سؤالى من ملامة :

« لقد بحثت عنه فى الأيام الأخيرة ، فبلغني من أنبائه ، أنه كان هاجر قبل مدة غير محدودة بالضبط الى البصرة ، ليتكسب فيها ويعيش عاملاً لدى إحدى الشركات الأجنبية ، فانه أضحى فى عنفوان شبابه ، وبلغ السن التى يستقل فيها المرء بالكفاح والجهاد فى سبيل الحياة ، وان أخاه الجندى المحارب لما يعد ، وهلكت أمه ومات أبوه فقيراً معدماً ، لم يترك له إلا ديونا وداراً ، بل كوخاً باعه الدائنون ؛ ولم يف ثمنه بعشر معشار تلك الديون . ولم يكن متعلماً حرفة ، ونسى ما تعلمه فى المدرسة العثمانيـة من مبادئ العلوم . وكان يزاول بعض الأعمال الشاقة التافهة التى يزاولها العمال الذين هم من أدنى الدرجات ؛ ولا يأخذون عليها أجراً يستحق ذكراً . هـذا كل ما سمعته عنه . ولا يعلم أحد على التحقيق أذهب الى البصرة أم الى جهة أخرى »

قلت :

« أو لا ترى من واجب الوفاء إتمام البحث عنه لاستئناف الصلة به والوقوف بجانبه فى معترك الحياة ، فى هذا المجتمع الذى طغت فيه المادية والأنانية والفردية ، المجتمع الجائر القاسى الذى لا يرحم الفقير ، وأن تنفعه وتعينه على اكتساب الرزق ، فانك موسر بعض اليسر . »

قال :

« وهل تحسب عبد العزيز المشاغب فى المدرسـة ، الذى لم يعرف سوى عزة النفس والأباء فى أيامه الماضيـة عُدة وخلُقاً ، والذى لم يستمن أحداً من صحبه يوماً لو وجدته الآن لمدّ لى ولأمثالى يده فى إبداء حاجة واستعانة مهما كان معسراً تنقض ظهره الشدة والفاقة ؟ كلا . أنا لا أحسب ذلك ؛ بل أحسب أن تلك الفترة من أيام مُراهقته وفاتحة شبابه ، كانت مقدمة وعنواناً لما كان مقبلاً عليه من أيام شبابه ورجولته »

ثم سكتَ وسكتُّ

وبعد شهرين أو ثلاثة أقبل علىّ يزورنى فى دارى ، وما عتم أن راح يحدثنى عن رفيق صباه عبد العزيز الذى عثر به آخر الأمر فقال :

« ولقد وجدته آخر الأمر وصافحته . . . ولـكن أين ؟ احزر أين وجدته ؟ فى السجن ! ولا تستغرب ؛ فقد ذهبت يوم الجمعة – أمس – الى هناك لأزور صديقى الصحافى عبد الصمد الذى سجن متهماً بنشر ما لا تجيز الحكومة نشره ، وإذ كنت أدخل الحجرة التى يُسمح بمقابلة السجناء فيها ألفيتنى أمامه وجهاً لوجه . وكان يكلم زائراً غريباً يرتدى بزة العامة ، ربما كان صديقاً له . ولم أعرفه إلا بعد تأمل فيه قليل ، لأن سحنته قد غيرتها السنون ؛ وحييته فحيانى وبسم لى ، ثم سألنى : « أو قد نسيتنى يا ابراهيم يا حبيبى ؟ يا رفيق الأيام الحلوة التى لن تعود ! وهل نسيتني علىّ كذلك ؟ وكيف هو ؟ .... الخ » ودمعت عيناه من شدة الفرح بلقيانا ، وكان طليقاً جريئاً ، كما كان فى المدرسة ، فى محادثته السجانين وصاحبى الصحافى عبد الصمد الذى لم يكن يعرفه من قبل ، ورأيت أن لهجته فى الكلام أصبحت عامية سوقية خالصة ، تميزها التعابير والألفاظ التى تجرى — عادة — على ألسنة هؤلاء الذين عرفوا بفعال « الشقاوة » — كما نسميها — التى تظهر فيها ، فى أغلب الأحيان ، شجاعة نادرة فى غيرهم و « أريحية » ونجدة وكرم على فقر ، وجرأة فى اجترام الجرائم ، وكراهية شديدة لكل من يمت إلى الأجنبى الغاصب بصلة باقية من عهد الاحتلال المظلم ، على ما تعرف . ولا أدرى كيف أدركت أنه محكوم عليه بعقاب السجن لاجترامه جريمة قد لا يفخر المرء بها عندنا ، فلم أشأ أن أسأله عما أدى به الى حاله تلك . ومن الغريب أنه لم يكن يرى فى أمره غرابة ؛ وكأنه كان معلوماً عندى ما اجترم فلم يخبرنى به ؛ وسرعان ما راح يودعنى ، إذ كانت الفرصة المسموح بها لزيارة المسجونين ضيقة جداً ، متمنياً أن يلاقينى عقب خروجه من السجن ، و « أن يكون تحت النظر » على حد تعبيره الشعبى الرمزى الجميل ، « فانه لا يزال على وده القديم ، وذلك الصاحب الذى لا ينسى الصحب على طول الزمان ، ولا يرضى عن الوفاء بديلا » . وترك المجلس لى ولصاحبى منصرفاً عنا فى لباقة وحسن أدب ، كما ينصرف الواحد منا عن اثنين لديهما سر ، ولم يكن لدينا – فى الحقيقة – سر غير أمره . فاننى كنت فى أشد الشوق الى سماع قصته ، وبتعبير أصح : قصة جريمته من صاحبى عبد الصمد ؛ وقد أحجمت عن سؤاله عما أدخله السجن ساعة لقيته لكى لا أجرح منه شعوراً طالما كنت أقدره ، بل اقدسه فى أيامنا التى خلت ، فى أزهى زمان وأحلاه ، زمان الدرس والتحصيل . وقال لى

عبد الصمد : « هذا فتى باهر الخصال يا أخى ، ولا أرى فائدة فى أن أقص قصته عليك فى اسهاب وتفصيل ، فهو الآن مجرم محكوم عليه بالسجن ثلاث سنين لأنه جرح رجلاً من الأجانب ، كان يحترف عملاً فنياً لدى شركة أجنبية فى البصرة ؛ وكان عبد العزيز « يشتغل » هناك بيده كعامل لا شأن له ، ورئيسه ذلك الأجنبى ، على أنه كان شخصاً مخيفاً بين العمال ، خشن الطباع ، شرساً ، كذلك قالوا عنه . وليس فى حادثته التى طوحت به الى السجن ما يستغرب منه ومن أمثاله فى العراق اليوم ، فقد انتهره ذلك الأجنبى ذات يوم ، وشتمه وأهانه ، لأنه أخطأ فى عمله بعض الخطأ ، فما كان منه إلا أن قابل اهانته اياه بطعنة بمديته ، فجرحه ، ولم يصب منه مقتلاً . انتهت قصته . أما هو فما يزال يذكر الحادثة غير مكترث بما صار اليه من جرائها ، فهو يرى لها سبباً من أسباب التفاخر بالجرأة والشجاعة ، ولا سيما أن المجنى عليه أجنبى من بقايا الذين جاءوا فى الحرب فى « الحملة » على العراق ، وهو يقول لنا عنه فى سذاجة ويكرر قوله مراراً : « ليته كان من أبناء أمتنا أمثالى ، إذن والله لما جرحته ، لما جرحته » ، فانظر الى رقة شعوره وشدة كرهه للأجانب الذين أرهقوا البلاد فى الحرب الاستعمارية الكبرى وبعدها . . . . والعبرة ليست فيما حدثتك ، بل فيما أرى عند هذا العبد العزيز الذى لقبوه فى السجن بأبى جاسم كما يلقب العراقيون عادة فتيانهم ذوى « الأريحية » والنجدة والشجاعة ، مجرمين كانوا أو غير مجرمين ، من فلسفة القوة والأمل والتفاؤل والاستهزاء بصروف الحياة ، فانني ــ وقد خصنى بصداقته وترحابه منذ أن دخلت السجن ــ قد أسفت على حالى كثيرا ، وطالما اسودت الدنيا فى وجهى يأساً وتشاؤماً ، فلا أكاد أسمع نصائحه الساذجة فى ظاهرها ، وضحكاته ذات الرنين العالى ، وأغانيه الشعبية التى يرسلها من نفس زاخرة بالأحلام والآمال ، حتى تتفرجُ نفسى من اليأس ، وتبدد عنى سحب التشاؤم والأسى ؛ فوالله ما نفعتنى فى هذه الأيام العابسة الكتب وفلسفاتها المهذبة المصقولة ، بقدر ما نفعتنى نصائح وضحكات وأغانى هذا الصديق الجديد فى السجن ، بل فى مدرسة الرجال والأبطال ، على ما يسميه ؛ وأنا ناقل لقوله فما علىّ من لوم ، فالناس تسمى السجن مدرسة المجرمين »

***

قال محدثى ابراهيم :

ثم زايلت السجن وكلى أسف على حياة صاحبى القديم ، التى أحسبها ضائعة بعد هذه الحال التى صار اليها ؛ وهذا ما كنت أتوقعه منذ طرد من المدرسة السلطانية العثمانية . تلك مقدمة هذه نتيجتها ... وفى نيتى أن أزوره يوم الجمعة القادم »

قلت وأنا مصغ له فى غير أسف :

« ولكن عبد العزيز أبا جاسم ، وهو جدير بلقبه هذا ، كان شريفاً من قبل ، شريفاً من بعد ؛ ورب مجرم معذور ؛ فاما أنه كان فقيرا وسوف يغدو كما كان ، فما فى الفقر من عيب . وما ضاعت حياة من كان مثله إباء وعزة نفس .... »

العراق — الأعظمية محمود . أ . السيد

البريد الأدبي

تولستوى لمناسبة الاحتفال بذكرى وفاته

تحتفل روسيا السوفيتية خلال شهر ديسمبر باحياء ذكرى كاتب روسيا وفيلسوفها الأكبر ليون تولستوى ، وذلك لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاته . ولقد محت الثورة البلشفية كثيرا من معالم روسيا وذكرياتها وتقاليدها القديمة ، ولـكن روسيا السوفيتية ما زالت تحرص على رعاية الآداب والعلوم والفنون ، وما زال هذا الحرص يتجلى فى كل موقف ومناسبة ، وذكرى تولستوى تتبوأ فى الأدب الروسى بل وفى الأدب العالمى أسمى مكانة ، وما زالت الثورة البلشفية تنحني اجلالا لذكرى هذا الذى رفع الأدب الروسى الى السماكين ، واتشح بنوع من القدسية يجعل ذكراه وتراثه فوق كل ثورة وكل انقلاب

توفى تولستوى منذ خمسة وعشرين عاما ، فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ ؛ وكان مولده سنة ١٨٢٨ فى قرية باسينا بوليانا من أعمال مقاطعة تولا فى أسرة قديمة عريقة فى النبل ؛ وتوفيت والدته وهو فى الثانية من عمره ، ثم توفى أبوه وهو فى التاسعة من عمره ؛ فكفلته واخوته إحدى عماته ، وتلقى معهم تربية خاصة على يد معلم فرنسى ؛ وفى سنة ١٨٤٣ أرسل الى جامعة قازان ليدرس فيها ؛ ولـكنه لم يبد براعة خاصـــة فى الدرس ، فقضى بها حينا ، وغادرها ملولا ، وانكب على اللهو بضعة أعوام ؛ ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره انتظم فى سلك الجيش فى قسم المدفعية وأرسل الى القوقاز ، واشترك فى حرب القرم تحت إمرة البرنس جور نشاكوف ، وقاتل فى موقعة سلستريا سـنة ١٨٥٤ ، وفى موقعة سباستبول سنة ١٨٥٥ . وكان تولستوى قد ظهر فى عالم الأدب قبل ذلك ببضعة أعوام ، فكتب فى بعض المجلات الـكبرى ، وكتب كتبه الثلاثة الأولى وهى « الطفولة » (سنة ١٨٥٢) ثم « الحداثة » (سنة ١٨٥٣) ثم « الشباب » . كتبها فى القوقاز قبل أن ينزح الى ميدان الحرب ، ووصف فيها طفولته وحداثته وشبابه فى صورة مؤثرة . وفى أثناء الحرب ، وتحت قصف المدافع كتب تولستوى عدة صور وقطع حربية قوية أسماها « قصص سباستبول » وفيها ظهرت روعة مواهبه الأدبيـة ، فطارت شهرته وكان بدء مجده الخالد . وفى « قصص سباستبول » تبدو شخصية تولستوى قوية ، ويبدو اجلاله للحقيقة والشمائل الإنسانية والحب الأخوى ؛ ويبـدو مقته لـكل مظاهر الطغيان والعنف . ولما انتهت الحرب عاد الى بطرسبرج تسبقه شهرته ، واتصل فيها بكل مجتمع رفيع وشخصية بارزة ؛ واتصل بأقطاب الـكتابة والأدب ، ولاسيما تورجنيف وجونشاروف وتكراسوف ، وتوثقت علائقه بتورجنيف مدى حين ، ولـكنها لم تلبث أن فترت لاختلافهما فى كثير من الآراء والمبادىء . ذلك أن تولستوى كان ثورى المبـدأ والعقيدة ، يحرر العبيد فى ضيعته ، ويغدق العطاء للفقراء ؛ ولـكنه كان فى أعماق نفسه « انفراديا » وكان بعيدا عن الحركة الاشتراكية التى كانت تجرف روسيا يومئذ ويتزعمها جناح قوى من الـكتاب والأدباء . هذا إلى أن تولستوى كان عبد الحقيقة يصورها فى تفكيره وفى كتابته ؛ بينما كان أولئك الـكتاب يكتبون غير ما يعتقدون ، ويفعلون غير مايقولون . وقد كانت كتب تولستوى صورة صادقة لشخصه ومبـادئه ، وكل ما فيها مستمد من حياته ومن نفسه ؛ وهذا ما يقرره تولستوى نفسه فى بعض كتاباته إذ يقول : « إن الحقيقة هى بطلة مؤلفاتى ، وهى دائما نفثة روحى وكل جوارحى »

وفى سـنة ١٨٦٢ تزوج تولستوى من صوفيا بيرس ؛ ولم يمض قليل على هذه الحياة الهادئة حتى كتب تولستوى أعظم كتبه قصة « الحرب والسلام » وظهرت لأول مرة سنة ١٨٦٩ ثم كتب قصته الخالدة « حنه كارنينا » وظهرت سنة ١٨٧٧ ؛ وفى هـذين الـكتابين يصل تولستوى الى ذروة قوته وروعته . وفى القصـة الأولى أعنى « الحرب والسلام » يصف تولستوى حوادث الغزوة النابوليونية لروسيا ؛ ومما يلفت النظر أنه يصف

فيها والدته فى شخص الأميرة مارى . وقد رأينا أن تولستوى فقد والدته وهو فى الثانية ، ولكنه مع ذلك يؤكد لنا أنها تركت فى ذهنه صورة قوية وأنه احتفظ فى ذهنه الفتى بكثير من ذكرياتها وصورها . وأما قصة حنا كارنينا ، وهى فيما يرى النقدة أعظم كتب تولستوى ، فهى القصة الخالدة لزواج نكد ، وما يترتب على مثل هذا الزواج من المحن ؛ وهى القصة الخالدة لزواج عادى وما يحيط به من العوامل والظروف . هى قصة فتاة تزوجت فى سن العشرين رجلا يكبرها بعشرين عاما ، وعاشت معه ردحاً من الزمن أمينة مخلصة ؛ ولكنها فى الثلاثين اضطرمت بفورة من الهوى فأحبت ضابطا فتى جميلا واستسلمت اليه ؛ ولما ارتاب زوجها فى الأمر اعترفت له لأول وهلة ؛ وأدرك الزوج بعد التفكير أنه يحمل تبعة هذه الجناية ، لأنه جنى على امرأة شابة فتزوجها وهو ليس أهلاً لحبها ، وكأنه اختلسها اختلاسا وارتكب بذلك جرما يعاقب عليه ؛ وعلى ذلك فقد شعر أنه يستحق ما أصابه ، وترك زوجه الفتية (حنه) وفارقها ، وعاش بلا أسرة . ولكن هل كانت حنه سعيدة بهذه الحرية ؟ كلا ، فقد شعرت هى الأخرى بأثمها ؛ وسرعان ما دب الفتور الى حبيبها ، وأضحت تشعر أنها غدت عبئا ثقيلا عليه ، وهكذا حطمت حياتها . وأما العاشق (فرونسكى) فقد كان فتى جم العبث والأهواء ، وكان يهوى حنه هوى الفورة والساعة ؛ ولكنه شعر أنه أثم أيضا وأن إثمه يوجب عليه أن يبقى إلى جانب تلك التى حطم حياتها ففر معها الى الخارج وقضى بذلك على مستقبل زاهر كان فى انتظاره ، ثم كانت خاتمة المأساة ذات يوم فى حلبة السباق إذ سقط المحب القديم من فوق ظهر جواد كان يمتطيه فقتل لساعته .

تلك هى الفلسفة الانسانية الرائعة التى يبسطها لنا تولستوى فى أعظم كتبه. وفى سنة ١٨٨٠ نشر تولستوى كتابه « اعترافى » وفيه يبسط لنا آراءه ونظرياته الدينية . وفى هذا الميدان كما فى غيره يبدو تولستوى فى صور مختلفة متناقضة ، فبينا نراه الرجل المؤمن العريق فى الايمان إذا بنا نراه ملحدا منكرا ، وإذا بنا نراه وثنيا وطائفيا . وكتب تولستوى بعد ذلك عدة كتب ورسائل أخرى يغلب عليها طابع التصوف ، منها « ايفان اليتش » و « الكورتيس سوناتا » و « مملكة الله فى قلبك » و« ما هو الدين » . وساح تولستوى فى ألمانيا وسويسرا وغيرها وكتب صور سياحته فى كتابين : أحدهما يسمى « لوسرن » والآخر « مذكرات نخليودو » وغدا تولستوى فى كهولته فيلسوفا ومصلحا اجتماعياً يحرر عبيد ضيعته ، ويقسم أرضه بين الفلاحين ويعنى بتربيتهم وإرشادهم ، ويغيث البؤساء والمنكوبين ؛ ومن أثر ذلك أنه نزل عن أملاكه لزوجه وأولاده ، وحاول أن يعيش عيشة الزهد والتقشف مثل ما يعيش أفقر أبناء الريف . وكان ذلك سببا فى تنغيص حياته العائلية ، وفى تسميم علائقه بزوجته . ولما شعر فى أواخر حياته أنه غدا بين أسرته كالغريب المنبوذ ، فر من منزله سرا . وكان قد تبوأ ذروة مجده منذ أعوام طويلة وغدا يكتنفه نوع من القداسة ، وكان قد أشرف على نهاية حياته الحافلة فتوفى بعد ذلك بقليل فى بلدة استابوفو فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ ، واختفت بذلك شخصية من أعظم شخصيات الأدب الحديث

وكان تولستوى شاعراً وفيلسوفاً وناقداً وفناناً ، وكانت حياته كلها حياة كفاح واضطراب ، ولكنها متناقضات مدهشة ؛ فمن ارستوقراطية عريقة ، الى ديمقراطية ساذجة ؛ ومن إيمان مؤثر إلى إلحاد مطبق ؛ ومن شغف بالنساء إلى احتقار لهن ؛ ومن إنسانية فياضة إلى أنانية عميقة . بيد أن تولستوى كان يسمو بروحه ومشاعره إلى أنبل ما يمكن أن تسمو اليه النفس الانسانية ؛ وقد كان لفلسفته وكتبه أثر عميق فى تطور المشاعر الروسية ، وفى تكوين النفس الروسية الحديثة

وقد بلغت مؤلفات تولستوى فى الطبعة الروسية زهاء مائة مجلد ، وترجمت إلى كثير من اللغات الحية ؛ وترجم له كثيرون من أكابر الكتاب فى مختلف الأمم

رسالة ملوكية ضخمة

من أنباء استانبول الأخيرة أن السلطات المختصة قد وجدت فى محفوظات متحف الدولة رسالة ملوكية ضخمة من الورق المشمع وطولها تسعة أمتار وعرضها سبعة ؛ وظهر من البحث أنها رسالة أرسلها شاه الفرس فى القرن السادس عشر الى السلطان سليمان الأكبر . وقد تقرر أن تعرض لأنظار الجمهور

موت زعيم كريم ، ابراهيم بك هنانو

وا أسفاه ! ! في الساعة التي اشتبهت فيها معالم السياسة في سورية ، فتدسست الأماني الخوادع إلى الشعب ، وتفرقت السبل الجوامع بالزعامة ، يغيب القطب الهادي ، ويُهدّم المنار الدالّ ، ويخبو الضرام المذكّى ، ويخفت الصوت المجمّع ، ويموت الزعيم هنانو ؟ ! رُوّعت سورية من شمالها إلى جنوبها بنعى هذا الزعيم الكريم ، ونالها من خطبه ما غلب على الصبر ومنع من القرار ، فهبت كلها تندبه وترثيه ، وتبكى بطلها وأملها ودليلها فيه . والحق أن الفقيد العظيم كان مثلاً نادراً في الزعامة البريئة الجريئة المخلصة : كان صلباً في الرأى على قدر إيمانه ، ومتمرداً على الباطل على سواء حقه ، ومهيمناً على الشعب بقوة نفسه ونبل غرضه . جرد على الواغل الدخيل جيشاً من الوطنية الصابرة والحمية الثائرة والعروبة الغضبى ، ثم صمد له بالعدد القليل بعد سقوط دمشق سنة كاملة لم يلن لمغمز ولم ينكل عن خطة ، حتى آل أمره إلى فلسطين فسلمته حكومتها إلى فرنسا خوكم وبرى ؛ ومن ذلك اليوم كان معقد آمال السوريين يفزعون إليه في المعضلات ، ويستنيرون برأيه في المشكلات ، وينضوون إلى رايته في المواقع . كان رحمه الله على خلق الزعماء أولى العزم والرسالة : نظر إلى أمته نظر الحكيم المصلح فألف بين قلوبها ووفق بين ميولها وقرب بين عقائدها ، ثم دافع عن مرافقها دفاع المؤمن النزيه ، فلم يسف إلى دنىء المطامع ، ولم يغتر بمظاهر الجاه ، ولم يطمح إلى عزة السلطة ، وإنما ظل جندياً يقود ، ومحامياً يذود ، وخطيباً يرأب بلسانه صدوع الفرقة ، حتى أضناه الجهاد المستمر ، وأقعده المرض الخامر ، فكان زعيماً بالفكرة ، قائداً بالمبدأ ، مرشداً بالقدوة . ثم قبضه الله إليه فأحدث ذلك الفراغ المخيف ، وهز أمته تلك الهزة المنيفة ، لأن الزعماء الذين يصوغهم الله على هذا الطراز يكونون في النهضات الاجتماعية من أممهم مكان السماط من حبات العقد ؛ ينظمون وحدتها ، ويجمعون كلمتها ، ويمسكون نظامها ، ويعقدون أمانيها ؛ فاذا قطعت المنون ذلك الخيط ذهب العقد بدداً ما لم يكن له من الله ناظم وعاصم — سقى الله بصيب الرحمة ثراه ، وعزى فيه الأمة العربية خير العزاء

الاحتفال بالجاحظ

في السنة القادمة (١٣٥٥ هـ) يتم أحد عشر قرناً لوفاة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ؛ وياحبذا لو تقدم علماء العراق وأدباؤه الى الاحتفال بذكراه في مدينة البصرة ، واشتركت الأقطار العربية كلها بتمجيد مناقب أعظم رجل جمع بين علوم الدين والدنيا في الاسلام . محمد كرد على

جوائز نوبل

ذكرنا في العدد الماضي أن جائزة نوبل للطب والفسلجة قد منحت عن هذا العام الى العلامة الألماني الدكتور هنز شبمان من أساتذة كلية فريبورج . ونضيف اليوم أن جائزة نوبل للكيمياء قد منحت للأستاذ جوليو الفرنسي من أساتذة جامعة باريس ولزوجته السيدة كورى جوليو ، وهي ابنة مدام كورى الكيميائية البارعة التي اشتهرت بمباحثها واكتشافاتها في الراديوم وخواصه . ومنحت جائزة نوبل للطبيعيات للأستاذ چيمس سادويك الانكليزي ومن أساتذة جامعة كمبردج اعترافاً بفضله في اكتشاف « النورون » . وقيمة كل جائزة من هذه الجوائز الشهيرة كما أسلفنا سبعمائة ألف فرنك (نحو تسعة آلاف جنيه)

وأما جائزة نوبل عن الآداب فلم يتقرر منحها هذا العام ، وتقرر أن يعاد النظر في أمر منحها في العام القادم . وقد سبق أن عطل منح هذه الجائزة زهاء خمس عشرة سنة من ١٩٠١ الى سنة ١٩١٤ ، ثم استؤنف منحها بعد ذلك

النقد

١ – تاريخ الاسلام السياسي

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

بعض مآخذ تاريخية

لأستاذ كبير

الدكتور حسن ابراهيم حسن من الشبان المصريين الذين يحملون فى مادة التاريخ الاسلامى طائفة غير قليلة من الألقاب العلمية الضخمة ما بين مصرية وأجنبية ، ثم هو قد زاول تدريس التاريخ الاسلامى فى الجامعتين المصرية والأزهرية سنين طوالاً أخرج فيها من الآثار المؤلفة والمترجمة شيئاً كثيراً ؛ وقد طلع على الناس فى هذه الأيام بسفر ضخم فى تاريخ الاسلام السياسى تناول الكلام فيه على عصر الجاهلية ، وعصر النبوة ، وعصر الخلفاء الأربعة ، وعصر بنى أمية

تلقاء هذه الألقاب الضخمة ، والخبرة الواسعة ؛ وتلقاء جلال العصر الاسلامى القديم ، استشرفت نفسى لمطالعة كتاب الدكتور الأخير منذ علمت بظهوره ؛ ولم أكد أصل إلى نسخة منه حتى عكفت على قراءته ؛ وقد قرأته من أوله إلى آخره . وإنى مع اعترافى بالمجهود الكبير الذى أنفقه الدكتور فى كتابه ، قد تبين لى فى الكتاب من السقط والزلل ما لا يحسن السكوت عليه ؛ لذلك عمدت إلى نشر ما تيسر لى نشره من الاستدراك خدمة لمادة ناشئة فى معاهدنا العلمية ، هى مادة التاريخ الاسلامى ، واستحثاثاً للمؤلف على تدارك أمره فى مادة هو متخصص فيها ، وضناً بما لمصر من حسن السمعة العلمية فى الأقطار الشرقية أن يتطرق اليه ضعف أو وهن . وإنى قاصر كلمتى اليوم على إيراد شىء من مآخذ الكتاب التاريخية تاركاً بقية المآخذ لكلمات أخرى أنشرها تباعاً على صفحات « الرسالة » الغراء

***

يطلق المؤلف فى ص ٣٤ كلمة « أقيال » على ملوك العرب وساداتهم ، مع أن هذا اللقب خاص بملوك اليمن أو من دونهم من أمراء المخاليف اليمنية

يقول المؤلف فى ص ٣٦ : « وكان للعرب نظام ثابت للزواج : فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى أمر زواجهن . وينبغى ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة » ولو قصر المؤلف هذه الحال على الحجاز لاستقام قوله ؛ أما وهو يعمم الحكم فكلامه لا يطابق الواقع ؛ والدليل على ذلك حديث البخارى المنسوب إلى عائشة ، والذى يبين الأنحاء الأربعة للأنكحة فى الجاهلية (البخارى ج ٧ ص ١٥)

يذكر المؤلف فى ص ٤٥ أخذاً بظاهر الرواية العربية ، أن الفرس كانوا زاهدين فى ملك اليمن ؛ والصحيح الثابت أنهم كانوا حراصاً عليه ليحدوا من نفوذ خصومهم الروم والأحباش فى تلك البلاد

يقول المؤلف فى ص ٤٥ فى وصف وهرز قائد الحملة الفارسية على اليمن : « ويصفه المؤرخون – ومنهم المستشرق نولدكه – بأنه قد بلغ من الكبر عتياً لدرجة أن جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر » والوارد فى الروايات أن حاجبيه هما اللذان كانا قد سقطا على عينيه لكبره فكان يعصب له حاجباه ليحسن الابصار (الطبرى ج ٢ ص ١١٩)

يقول فى ص ٥٨ « ويستفاد من أخبار العرب أن بنى جفنة استولوا على سورية » ، ولو استبدل « بادية الشام » بسورية لاستقام قوله

يقول المؤلف فى ص ٦١ — ٦٢ « وكان لكل قبيلة رئيس منهم حسب نظام القبيلة المسمى Patriarchal State الذى كان مألوفاً لدى العرب فى جاهليتهم ، وكان لهذا النظام مثيل بجزيرة قرسقة

(كورسيكا) » واستعمال لفظ أجنبي لنظام عربي لا محل له هنا كما أن التنظير بين بلاد العرب وبين قورشقة خاصة يبدو غريباً ونابياً في هذا المقام

يزعم المؤلف في ص ٦٣ أن الحجاز « ظل محافظاً على استقلاله أيام الاسكندر المقدوني الذى صده العرب حين أغار على ملك الفرس » فمتى ، وأين ، وكيف صد العرب الاسكندر المقدوني يا دكتور ؟ لاشك أنك إن فصلت ما أجملت في عبارتك تكشف عن ناحية خطيرة مجهولة من تاريخ الفاتح المقدوني الكبير

يقول المؤلف في ص ٦٨ في سياق كلامه على قريش « واتخذوا جزءا من الأرض المجاورة أولوه احترامهم ، واعتبروه مقدسا ، وبنوا به بيتاً حراماً لايحل فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته » وهذا كلام يضر قائله ولا ينفعه ، وإنى أنصح للدكتور أن يبادر الى التبرؤ منه وإلقاء تبعته على قائله الأصلي . فالدكتور لا شك يعرف أن إبراهيم الخليل هو الباني للكعبة ، وأن قريشاً كانت تحتمي بالبيت والحرم ، بدلا من أن تحميهما ، بدليل قوله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » (سورة العنكبوت)

يقول المؤلف في ص ٨٧ في صدد الكلام على الحنيفية ببلاد العرب : « ويطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون » وهنا أيضاً أنصح المؤلف أن يبرأ من هذا القول فليس معنى التحنف « التوبة والاعتراف »

ويقول في ص ٩٧ بعد أن يورد أسماء السابقين الأولين الى الاسلام : « وقد سموا السابقين الأولين كما سمى من أسلم بعدهم بالمستضعفين » وظاهر أن ليس التأخر في الاسلام هو السبب في وصف المستضعفين بالاستضعاف إنما السبب في ذلك أمر آخر يعرفه من يقرأ الجزء الأول من سيرة ابن هشام بشيء من الروية والتفكير

ويقول في ص ١٢٩ ـ ١٣٠ : « ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين في نفوس أصدقائه وأتباعه ويحثهم على الخضوع والاذعان لارادة الله ، ومن ثم سمى هذا الدين بالاسلام لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لارادة الله تعالى . والذين يدينون به يسمون المسلمين ، أي الذين يخضعون لأمر الله ورسوله » وعلى فرض صحة هذا القول ماذا كان يسمى الاسلام والمسلمون قبل بناء المسجد وطوال العصر المكي ؟

ويقول في ص ١٣١ : « وأحل (الاسلام) الدعوة الدينية محل الوحدة القومية » ثم يقول بعد : « وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية » والظاهر أن المؤلف ينقل هنا عن أصل أجنبي ، وأن المراد بالوحدة القومية والجنس هنا اعاهو « القبيلة »

ويقول في ص ١٣٤ : « فقد تزوج (الرسول) ... صفية بنت حُيَيّ سيد بني النضير ليتم له إسلام قومها ، لا لتأثير جمالها كما يقولون فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك » وهذا الكلام إن دل على شيء فانما يدل على قلة الاطلاع الصحيح وعلى سذاجة التفكير وإلا فهل كان الرسول لا يزال يطمع في إسلام اليهود بعد الذى جرى بينه وبينهم من الأحداث الجسام بالمدينة وخيبر ؟ ثم متى كان التأثر البريء بالجمال دليلاً على نزول النفس وعدم سموها ؟

ويقول المؤلف في صفحة ١٥٤ : « سرية بني الرجيع » ويعيد ذلك القول في هامش صفحة ١٧٤ ظنا منه أن هناك قبيلة تسمى (بني الرجيع) والواقع أنه انما يريد « بني لحيان » الذين كان لهم ماء يسمى (الرجيع) وقعت عنده الحادثة المعروفة في كتب السيرة

ويقول في صفحة ١٧٠ : « وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم (اليهود) كانت أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها » ولو عكس المعنى فقال : « كانت أحزم وأشد » لكان كلامه منطبقا على الواقع من غير نزاع

ويقول في صفحة ١٨٣ في صدد الكلام على غزوة الطائف : « وأقام الرسول على حصارهم (ثقيف) حتى إذا دنا شهر ذى القعدة وهو من الأشهر الحرم فك الحصار عنهم ليرجع اليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم » ومع أن الأشهر الحرم لا تمنع من مباشرة القتال في الاسلام فان الرسول لما رأى أن الحرب طالت بينه وبين ثقيف علم أنه لم يؤذن له فيها وأسر ذلك الى أبي بكر وعمر ثم ارتحل عن الطائف تاركا أمر اسلامها للزمن . وقد صحت فراسته فقد جاءه وفد ثقيف باسلامها في رمضان سنة ٩ هـ

ويسمى المؤلف في صفحة ٢١١ نابليون بـ « الفتى الطلياني » وذلك تعبير لا يليق صدوره ممن يتخصص في التاريخ

في صفحة ٢٤٠ ـ ٢٤١ يزعم المؤلف أن القصيدة التي مطلعها :

إن بالشعب الذى دون سلع   لقتيلا دمه ما يطل

قالها قائلها فى رثاء عمه ، والصحيح الثابت من سياق القصيدة نفسها أنهـا قيلت فى رثاء خال الناظم لا عمه وذلك بدليل قول الشاعر :

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل

والظاهر أن المؤلف شغل بنقل شرح التبريزى على القصيدة عن تفهمها وتبين من قيلت فيه

ويقول فى صفحة ٢٤٧ فى كلامه على أبى بكر الصديق : « وكنى بأبى بكر لمبـادرته الى الاسلام » ولست أدرى ما الذى أبقاه المؤلف بعد هذا القول لجهلة المبشرين ومتمسفى المستشرقين ؟

ويقول فى ص ٢٧٨ : « لقد رحب الفرس بالعرب حبا فى الخلاص من ظلم الحـكام أولا ورغبة فى معافاتهم من الخـدمة العسكرية ثانياً . . » وهو كلام بعيد عن الواقع بعـد السماء عن الأرض

يظهر المؤلف فى هامش ص ٢٩٥ ضجره من اضطراب تاريخ فتح العرب الشام ويقول « وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع لأن ذلك ليس من شأننا » فهل ترى ياد كتور أن من شأنك أن تنقل شرح التبريزى على قصيدة تأبط شرا ، وأن ليس من شأنك أن ترتب وقائع فتح العرب للشام ؟

ويقول فى ص ٣١٠ عند كلامه على فتح عمرو الاسكندرية : « وهزم الروم براً وبحراً » وقد أخطأ هنا من وجهين . فان عمرا أو غيره من العرب لم يهزم الروم براً وبحراً عند الاسكندرية ، وإنما استولى عليها بمعاهدة بابليون التى تمت بينه وبين المقوقس (أنظر كتاب فتح العرب مصر لبطلر) ثم كيف استطاع عمرو أن يهزم الروم بحراً ؟ هل كان معه أسطول ياترى ؟

يزعم المؤلف فى صفحة ٣١٤ أن المؤرخين لم يجزموا برأى فى أمر حريق مكتبة الاسكندرية . والصحيح أنهم فعلوا . فقد جزم بطلر بأن العرب لم يحرقوها ، وجزم جورجى زيدان فى تاريخه بأنهم أحرقوها

يقول فى ص ٣٣٠ ضمن كلامه على عثمان بن عفان : « وكان يصوم الدهر » ، والعقل الناقد يرفض هذا القول وإن كان وارداً فى كتاب قديم . هـذا فوق ماورد فى الأثر من النهى عن صوم الدهر

يقول فى ص ٣٤١ أن عثمان ترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون ، وتلك دعوى لا يقوم على صحتها دليل

يقول فى ص ٣٥٣ أن قتلة عثمان ضربوا عنقه وأن بعضهم قطع بالسيف أصبع نائلة زوج عثمان ، والخليفة المظلوم قتل دون أن يضرب عنقه ، وأن أصابع يد نائلة أطنت بالسيف لا أصبع واحدة

يقول فى ص ٣٦٥ : « ولما توفى عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون الشورى الذى سنه عمر » وعمر لم يسن قانوناً للشورى وإنما عين ستة نفر يختار المسلمون من بينهم خليفتهم

فى ص ٣٩٨ يتابع المؤلف المستشرق الانجليزى نيكلسن فى قوله فى انتصار معاوية فى أمر الخلافة : « اعتبر المسلمون انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للارستقراطية الوثنية التى ناصبت الرسول وأصحابه العداء » والأمر هنا ليس أمر وثنية وإسـلام إنما هو أمر أحزاب سياسية تتنافس فى الحكم وفاز بعضها فى النهاية

وهو يتابع فى ص ٤٢٥ السـيد أمير على فى قوله فى وقعة الحرة « ولا غرو فقد حول جند الشام المسجد الجامع الى اصطبل لخيولهم وهدموا الحرم والأماكن المقدسة لسلب ما فيها من أثاث ومتاع » وهذا كله غير ثابت

يقول فى ص ٥٠٧ عند كلامه على المرجئة : « وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب هذا المذهب المشهور الذى لا يزال باقياً الى اليوم » واتهام الامام الأعظم بالارجاء أمر قديم وقد كفانا مؤنة تفنيده السلطان أبو المظفر عيسى الأيوبى فى رده على الخطيب البغدادى

(يتبع) مؤرخ

